أزمة علم النفس



تأليف : جورج بولتزير
ترجمة : د . لطفى فطيم
مراجعة : د . مصطفى زيور

في الفلسفة
والإنسانيات

أزمة علم النفس المعاصر

تأليف : جورج بوليتزير

ترجمة لطفي فطيم

مراجعة وتقديم : د . مصطفى زيور

مقدمه الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الاولى من هذه الترجمه عام ١٩٦٨ ونفذت بسرعة . واليوم تعيد دار شهدى اصدارها، وهو امر طبيعي فهذه الدار التى قامت لتخليد ذكرى المناضل المصرى شهدى عطية الشافعى الذى قتل ضربا بالعصى فى سجون عبد الناصر عام ١٩٦٠، لا بد ان تنشر كتاب بوليتزير الفليسوف والمناضل الفرنسى الذى اعدمه الفاشست الالمان عام ١٩٤٠ .

وقد وقع فى يدى منذ بضع سنوات كتاب آخر بنفس العنوان أى " ازمة علم النفس المعاصر" فظننت لأول وهلة ان بعض الناشرين قد سطا على كتابى واعاد طباعته دون علمى ، ولكنى سرعان ما اكتشفت ان مترجم الكتاب هو الدكتور سيد عثمان الاستاذ بكلية التربية بجامعة عين شمس وأن مؤلفه هو الدكتور جيمس ديز (وبالمناسبة لا يكتب المؤلفون الأجانب عادة مهما علا شأنهم ، امام اسمائهم لقب دكتور) احد اساتذة كلية التربية بجامعة لندن ، وأن العنوان الاصلى للكتاب هو *"Psychology asscionce, art"* أى " علم النفس بوصفه فنا وعلما " ولكن المترجم فضل اختيار هذا العنوان المثير مما يوحى باحساسه الشخصى بأزمة علم النفس ، واغلب الظن انه لم يطلع على كتاب بوليتزير فهو اكثر اهتماما بما يسمى علم النفس الاسلامى .

والفرق بين الكتابين ان كتاب بوليتزير هو نقد للاساس الفلسفى المثالى لعلم النفس وتقديم لوجهة نظر جديدة ، يرى بوليتزير انه يجب على علم النفس اتباعها ان هو اراد ان يكون علما فعليا ،وهى ما سماها بعلم النفس العيانى *"Psychologic concrete"* أى الذى يتناول الحياة المعاشة الفعلية الملموسة للانسان بدلا من الافكار المجردة التى لا تنطبق على

احد بالذات وذلك من منظور فلسفى مادى جدلى. اما الكتاب الذى ترجمه د. سيد عثمان فهو ينقد المناهج واساليب العمل التى يتبعها علم النفس والفارق الآخر ان كتاب بوليتزير صدر لأول مرة عام ١٩٢٩ اما كتاب ديز فقد صدر عام ١٩٧٢ . وقد سبق لبوليتزير ان اصدر كتابا آخر فى نفس الموضوع عنوانه " نقد اسس علم النفس " عام ١٩٢٨ .

ما اهمية كتاب بوليتزير ؟

ترجع اهمية هذا الكتاب الى كونه اضافة نظرية لا يستطيع أى مشتغل بعلم النفس أن يهملها ، ولكن للأسف لا نجد لها ذكرا فى كتب علم النفس الامريكية والبريطانية وذلك لكراهية اصحاب علم النفس الامريكى لوجهات النظر التى تستند الى الفلسفة المادية الجدلية لأسباب لا تخفى على فطنة القارىء . وقد اعتمد المشتغلون بعلم النفس فى البلاد العربية على النقل من المصادر الانجليزية والامريكية نقلا مباشرا بحيث يمكن القول ان ما يوجد من علم نفس فى البلاد العربية هو " علم نفس الخواجات " أى علم النفس الذى يتناول سلوك ومعتقدات ومشاكل المجتمعات الغربية والانسان الغربى والذى لا ينطبق علينا نحن ابناء الوطن العربى ، الا اذا كان هناك ما يسمى بالطبيعة الانسانية او النفسية الواحدة للبشر جميعا ، وهو افتراض لم تثبت صحته . فمعظم المنظرين فى مجال الشخصية يعتبرون ان الانسان هو نتاج بيئته ، وان عنصر الثقافة والتوصية له اكبر الاثر فى تكوين نفسية الانسان وعقله . وعندما نتحدث عن " العقل العربى " او عن الثقافة العربية " فأننا نصدر سواء صرحنا بذلك ام لم نصرح عن موقف يسلم بوجود " عقل" و " ثقافات " أخرى يتحدد بالمقارنه معها العقل والثقافة اللذين نتحدث عنهما "هذا شيىء لا مفر منه اذا " بضدها تتميز الاشياء ". فعندما نتحدث عن

" العقل العربى" فنحن نميزه فى نفس الوقت عن " العقل الغربى " .

ويتجدد نظام كل ثقافة - كما يقول كوسدورف - " تبعا للتصور الذى تكونه لنفسها عن الله والانسان والعالم وللعلاقة التى تقيمها بين هذه المستويات الثلاثة من نظام الواقع . " فالثقافة الغربية - اليونانية عندها ان العقل يحكم العالم ، ذلك لأن العقل - يمعنى النظام - هو اساسها وان من ينظر اليها بعين العقل لا يرى فيها الا العقل . ومن هنا كان العقل فى التصور اليونانى الارسطى هو " ادراك الاسباب " وفى هذا الاتجاه نفسه سارت الفلسفة الحديثة فى اوروبا . وسواء نظر الى هذا العقل على أنه قائم بذاته مستقل عن فكره الله أو نظر اليه على انه هو الله ذاته ، فان العلاقة بينه وبين نظام الطبيعة تبقى علاقة مطابقة . ولقد انعكس هذا التصور حتى على اللغة ، فنجد فى اللغات الاوربية ذات الاصل اللاتينى ان كلمة *Raison* بالفرنسية و *Reason* بالانجليزية تعنى فى آن واحد العقل والسبب . وعلى الرغم من التطور الهائل الذى عرفه العقل الغربى منذ هيراقليطس الى اليوم فان هناك ثابتين اثنين ينتظمان خط سير ذلك التطور ، ويجددان بالتالى بنية العقل فى الثقافة الاغريقية الاوروبية ، هذان الثابتان هما : (١) اعتبار العلاقة بين العقل والطبيعة علاقة مباشرة (٢) الايمان بقدرة العقل على تفسيرها والكشف عن اسرارها . الثابت الاول يؤسس وجهة نظر فى الوجود والثانى يؤسسس وجهه نظر فى المعرفة .

المطابقة بين العقل ونظام الطبيعة والقول بأن العقل يكتشف نفسة فى الطبيعة ومن خلال التعامل معها ثابتان اساسيان فى بنية الفكر الغربى - اليونانى - الاوروبى ، فلننظر الى ما علية الحال بالنسبة " للعقل العربى " ؟

سنلاحظ اولا ان ما يميز العقل العربى بوصفة عقل الثقافه العربية الاسلامية هو ان العلاقات داخله تدور حول ثلاثة اقطاب : الله والانسان والطبيعة . واذا اردنا تكثيف هذه العلاقة حول قطبين اثنين فقط كما فعلنا بالنسبة للعقل اليونانى الغربى ، وجب ان نضع فى احدهما الله وفى الآخر الانسان اما الطبيعة فلا بد فى هذه الحالة من تسجيل غيابها النسبى ربما بنفس الدرجة التى سجلنا بها غياب الله فى بنية العقل اليونانى الاوروبى . بل ويمكن القول ان الدور الذى تقوم به فكرة الله فى الفكر اليونانى الاوروبى تقوم به الطبيعة فى الفكر العربى، دور الوسيط او القنطرة : اذ توظف فكرة الله من اجل تبرير مطابقة قوانين العقل لقوانين الطبيعة ، وبالتالى من اجل اخفاء المصداقية على المعرفة أى جعلها يقينية . بعبارة اخرى تقوم فكرة الله بدور " المعين " للعقل البشرى على اكتشاف نظام الطبيعة واكتناه اسرارها .

اما فى " العقل العربى " كما تشكل داخل الثقافة العربية الاسلامية ،فالطبيعة هى التى تقوم بدور " المعين " للعقل البشرى على اكتشاف الله وتبين حقيقته كما يقول الشاعر :

تلك الطبيعة قف بنا يا سارى
حتى اريك بديع صنع البارى

فى الثقافة العربية الاسلامية يطلب من العقل ان يتأمل الطبيعه ليتوصل الى خالقها : الله ، اما فى الثقافة اليونانية ـ الاوروبية يتخذ العقل من الله وسيلة لفهم الطبيعة .

واذا كان مفهوم العقل فى الثقافة اليونانية الحديثة والمعاصرة يرتبط"بأدراك الاسباب " أى

بالمعرفة ،فان معنى " العقل " فى اللغة العربية ، وبالتالى فى الفكر العربى يرتبط اساسا بالسلوك والاخلاق . ولا يظنن احد ان مفهوم " العقل " فى الثقافة الاوروبية اليونانية لم يمتد الى الاخلاق او انه فى الثقافة العربية الاسلامية لم يمتد الى المعرفة ، ولكن فرق كبير بين الاتجاه من المعرفة الى الاخلاق ، والاتجاه من الاخلاق الى المعرفة ، فى الحالة الاولى وهى حالة الفكر اليونانى الاوروبى تتأسس الاخلاق على المعرفة ، اما فى الحالة الثانية ، حالة الفكر العربى فتتأسس المعرفة على الاخلاق ، ان المعرفة فى حالة الثقافة العربية لا تكون اكتشافا للعلاقات التى تربط ظواهر الطبيعة ببعضها البعض لا تكون عملية يكتشف العقل فيها نفسة من خلالها فى الطبيعة ، بل تكون التمييز فى موضوعات المعرفة حسية كانت أو اجتماعية ،بين الحسن والقبيح ، بين الخير والشر ، ومهمة العقل ووظيفته بل وعلاقة وجوده هى حمل صاحبه على السلوك الحسن ومنعه من اتيان القبيح .

ويتضح هذا المعنى فى مختلف الدلالات التى يتطلبها القاموس العربى لماده (عقل) حيث يكاد يكون الارتباط بين تلك الدلالات وبين السلوك الاخلاقى عاما وضروريا ، بل ويتضح كذلك فى جميع الكلمات التى ترتبط معها بنوع من القرابة فى المعنى مثل ذهن ونهى وحجا ... و جاء فى لسان العرب " وسمى العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عن التورط فى الهلاك أى يحبسة " والنهى جمع نهية ،والنهية تنهى عن اقبيح" .... الخ اما فى القرآن فأننا سنجد هذا المعنى القيمى المرتبط بكلمه عقل وما فى معناها يعبر فى الاغلب العم عن التمييز بين الخير والشر . وبين الهداية والضلال ، ولعل مما له مغزاه فى هذا الصدد أن القرآن لا يستعمل مادة " عقل " فى صيغة الاسم ، فلفظة " العقل " لم ترد قط فى القرآن وانما وردت فى صيغة العقل فى معظم الحالات أى ان العقل اداة

للتميز بين الخبيث والطيب ، فالقرآن يؤنب المشركين لكونهم لا يميزون بين الحق و الباطل - بالمعنى الاخلاقى " لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالانعام بل هم اضل، اولئكهم الغافلون " الاعراف أية ١٧٩) ونجد هنا القلب والعقل بمعنى واحد و المغزى القيمى واضح • وفى نفس هذا المعنى وردت الآية التالية " ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون " (الانفال ٢٢)• وهناك آيات اخرى تربط بين العقل والهداية والمسئولية من ذلك الآية التالية " واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا ، او لو كان اباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون • ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء ،صم بكم عمى فهم لا يعقلون " (البقرة ١٧٠-١٧١) •

صحيح اننا يمكن ان نلمس من خلال الدلالات المختلفة لكلمه عقل والكلمات الأخرى التى فى معناها ما يمكن ربطه بالنظام والتنظيم ، ولكن حتى فى هذه الحالة يظل الجانب القيمى حاضرا دوما • فالنظام والتنظيم فى المجال التداولى للكلمات العربية المذكورة تتجة دوما الى السلوك البشرى لا الى الطبيعه وظواهرها• ومن هنا يمكن القول ان " العقل "فى التصور الذى تنقله اللغه العربية المعجمية يرتبط دائما بالذات وحالاتها الوجدانيه واحكامها القيمية • فهو فى نفس الوقت عقل و قلب وفكر ووجدان وتأمل وعبرة ••• اما فى التصور الذى تنقله اللغات الاوروبية فالعقل مرتبط دوما بالموضوع ، فهو اما نظام الوجود ، واما ادراك هذا النظام ، او القوه المدركة •

ومن كل ما سبق نكون من الناحية المبدئية على الاقل - فى وضع يسمح لنا بالقول ان " العقل العربى" ••• وبالتالى الثقافة العربية والشخصية العربية - تحكمه النظرة المعيارية للاشياء ،ونقصد بالنظرة

المعيارية ذلك الاتجاه فى التفكير الذى يبحث عن مكانها وموقعها فى منطوقة القيم التى يتخذها ذلك التفكير مرجعا له ومرتكزا . وهذا فى مقابل النظرة الموضوعية التى تبحث فى الاشياء عن مكوناتها الذاتية وتحاول الكشف عما هو جوهرى فيها . ان النظرة المعيارية نظرة اختزالية ،تختصر الشيء فى قيمته ، وبالتالى فى المعنى الذى يضفيه عليه الشخص او المجتمع والثقافة صاحب تلك النظرة ، اما النظرة الموضوعية فهى نظرة تحليلية تركيبية تحلل الشيء الى عناصره الاساسية لتعيد بناءه بشكل يبرز ما هو جوهرى فيه . بعبارة موجزة العقل عندهم مرتبط بالبحث فى الاسباب والعقل عندنا مرتبط بالبحث فى الاخلاق .

ولقد لخصنا فى الفقرات السابقة الاجتهاد النظرى للمفكر المغربى محمد عابد الجابرى(١) حول مسألة فهم الشخصية العربية او اصول العقل العربى ندلل بها أولا: على الدور المحدود" لعلم نفس الخواجات " فى فهم نفسية الانسان العربى ،وثانيا على اهمية التفكير النظرى الخلاق فى علم النفس واستنادا الى ذلك نجد انه من الصعب استخدام التطبيق الغربى لعلم النفس فى مجتمعاتنا . ولا يعنى هذا الكلام ألا نستفيد مما يعلمنا الغرب اياه ، بل يجب ان نستفيد منه ، ونضيف اليه ، واكرر نضيف اليه فبدون هذه الاضافة أى الابتكار النظرى ، لا الاحصاءات ومعاملات الارتباط وتدوير المحاور وما شابه من فنون اللعب بالارقام ، الصادر عن الفهم الاصيل للواقع يظل علم النفس غريبا عنا .

---

(١) دكتور محمد عابد الجابرى : تكوين العقل العربى ، دار الطليعة ببيروت الطبعة الثانية ١٩٨٥ . (الفصل الاول) .

ولا يفوتنى أن اذكر ان هناك المئات من بحوث الماجستير والدكتوراه وغيرها فى مجال علم النفس ومعظمها بحوث ميدانيه ولكن للاسف يبدو ان بهـا شيئا ما يجعلها غير قابلة للتطبيق او ان يستفيد منها أحد . واغلب ظنى ان هذا الاغتراب عن الواقع النفسى للمواطن العربى هو السبب فى عدم فاعلية المشتغلين بعلم النفس فى الحياة العامه ، فى حين تبوأ غيرهم من خريجى الكليات العسكرية وغيرها المواقع الهامة فى المجتمع . وهناك طبعا اسباب اخرى لذلك " الانطواء " ليس هذا هو مجال عرضها .

مربط الفرس اذن هو العجز عن تقديم مساهمات نظرية او الخوف من القيام بهذه المحاولات ،وبدون تقديم نظرية او نظريات عربية فى علم النفس سنظل على هذا الحال . يقول المفكر المغربى عبد الله العروى(1): ان موقفنا اليوم يتلخص فى رفض تراثين تراث الثقافة المسيطرة على عالمنا الحاضر التى تدعى العالمية والالمامية وتعرض نفسها علينا الى حد الالزام والضغط ولا تفتح لنا بابا سوى باب التقليد او الاعتراف بالقصور ، وتراث ثقافة الماضى الذى اخترناه تعبيرا لنا فى عهودنا السابقة لكنه لم يعد اليوم يعبر عن جميع جوانب نفسياتنا . نحن مطالبون بنهج طريق ثالث مبنى على التجربة والمخاطره ولكن دون هذه الغاية شروط هى الوعى ومعرفة الثقافة المعاصرة معرفة دقيقة واطلاع على معطيات تجربتنا التاريخيه .

ولعل الخطوه الاولى فى تقديم المفاهيم النظرية هى الموقف الانتقادى الذى لا يكتفى باظهار الجوانب المتفسخة فى الحضارة الغربية وانما يدرك ايضا ضرورة انتقاد الذات وهذا الموقف الجدلى سيؤدى

---

(1) عبد الله العروى : العرب والفكر التاريخى، دار التنوير للطباعة والنشر ،بيرون ١٩٨٣. (صـ ١١٣) .

بالقطع الى طرح التساؤلاء الفلسفية الاولى : مـــا الوجود ما الزمان ما الانسان ... الخ. وذلك فى اطار الخصوصية الثقافية وهذا الموقف هو الذى يؤدى الى ظهور الابداع الثقافى المطلوب . وسبق لنــــا أن تناولنا هذا الموضوع فى عرضنا لموضوع حركة رد الطب النفسى "Anti psychatry" فى اوربا حين قلنا انه رغم ان الاضطرابات النفسية ذات طبيعة شاملـــة فان الاشكال التى تتخذها والطريقة التى تدرك بهـــا مطوعة ومحددة حضاريا الامر الذى يدعونى للقـــول باعادة النظر فى النظريات الحضارية الغربية خاصة عند تناول الامراض النفسية . فالحضارات فى الشـــرق ودول العالم الثالث ليست مضطرة ان تسلك مسلك أوروبا وامريكا لكى تتقدم ، واعتقد ان الاخذ بفكرة المستعرض اقرب الى الصواب .

ومن هنا تأتى اضافة بوليتزير مثالا على الجهد الخلاق لنقد اسس علم النفس وتقديم تصور نظرى جديد. صحيح ان هذا الاجتهاد لم يجد حتى اليوم من يضعــــه موضع التطبيق ، الا اننا لا نستطيع تجاهلة اذا اردنا ان نفهم كيف يكون الابداع النظرى فى علم النفـــس . لقد حاول بوليتزير ان يضع اسسا لعلم النفس يستنـد الى الفلسفة الماركسية ، تلك الفلسفة التى تعتبـر الانسان موجودا اجتماعيا وان سلوكه يتحدد بالتفكيـر والانفعالات ودرجة معرفة القوانين التى تحكم الطبيعة والمجتمع والانسان نفسه . وان الانسان لا يمكـــن ان يوجد بمعزل عن الآخرين ، فجوهر الانسان ليس تجريـدا كامنا فى كل فرد واحد انما هو فى حقيقته جمـــاع العلاقات الاجتماعية . وقد بينت الماركسية للمـــرة الاولى ان الدوافع الموضوعية الحقيقية التى تحـــدد نشاط الانسان تمتد جذورها فى النهاية الى الظـــروف المادية لحياته . وان السمات النوعية للإنسان ،تلك التى تعبر عن جوهره باعتباره " انسانا " وهى الوعى والحياة الروحية والقدرة على العمل والابتكار هى نتاج

للعمل الاجتماعى . وقد احل ماركس ، محل النظريات القديمة عن الطبيعة البشرية العامة ،فكرته عن طبيعة الانسان المحسوسة التى يحددها النظام التاريخى المحدد للمجتمع . وانه فى ظروف تقسيم العمل والتناقض الطبقى وسوء توزيع الثروه لا يستطيع الانسان ان يطور بحرية قدراته المادية والروحية ولا بد من ان يتطور حتما من جانب واحد ،وهو ما ينعكس قبل كل شيىء فى التناقض بين العمل الذهنى والبدنى. وفى ظل الاشتراكية وحدها سوف يجد الانسان كل فرصة للتطور الشامل وتنمية ملكاته وميوله الفردية الى اقصى حد . وتتكون الماركسيه من شقين اساسيين المادية الجدلية والمادية التاريخية ، وتتضمن المادية الجدلية النظرة الفلسفية العلمية للعالم، اما المادية التاريخيه فهى العلم الذى يدرس القوانين العامة للتطور الاجتماعى واشكال تحققه فى نشاط البشر التاريخى وبالتالى فهى تشكل الاساس النظرى والمنهجى لكل العلوم الاجتماعية (١) والانسانية .

ومهما كان الرأى فى تلك الفلسفة وقضاياها فلا يمكننا انكارها ، اذا انها حقيقة من حقائق العصر لا تكتمل المعرفة بدونها ، واراد بوليتزير ان يجعل الانسان الفردى بحياته المعاشة والملموسة موضوعا لعلم النفس وسمى هذا الموضوع "الدراما" واساس الدراما هو الجدل ، ذلك الجدل الذى تضاربت فية الآراء فوصف تارة بأنه تلاعب بالالفاظ ومصادرة على المطلوب ،وتارة اخرى بانه تصيد للمتناقضات وتحطيم للمنطق ولذلك فهو كارثة على الفكر المعاصر، بينما وصفه آخرون بانه الفلسفة لا اكثر ولا اقل وان البديل الوحيد له هو الانكار الدوجماطيقى ، اى الاحتماء منه فى سواتر الاعتقادات الجامدة التى لا

---

(١) روز نتال ويودين ،الموسوعة الفلسفية ،ترجمه سمير كرم ،دار الطليعة ببيروت ،الطبعة الرابعة ١٩٨٤.

يأتيها الباطل من امامها ولا من خلفها . والحق ان ما يقصد بالجدل (الديالكتيك Dialictic.) هو وجود عقل جدلى أى انه صفة للفكر ويتسم بسمات معينه هى : اولا التقابل بالتضاد او بالتناقض فكلما كان هناك تناقض او قضاء نشأت حركه للتخلص منه . والسمة الثانية للعقل الجدلى هى الكلية او الشمول اى انه يدرك الانياء الجزئية فى حقيقتها الكليه فيعرف حاضرها ومستقبلها ويعرف علاقاتها الحقيقية التى لا يكشف عنها وضعها المباشر ، اى انه باختصار يدرك الامكانات الحقيقية التى يتضمنها الشيىء . وبسبب عنصر الشمول هذا تعارض الفلسفة الجدلية باستمرار الفلسفات الواقعية والوضعية التى تقتصر على الجزئى و المعطى ، فالكلى اكثر من الجزئى، ولذلك فان امكانات البشر والاشياء لا تستند الى الصور والعلاقات المعطاة التى قد يظهرون بها واقعيا . والخاصية الثالثة للعقل الجدلى هىانه هو نفسه مركب ، فهو يعارض العقل التحليلى او الوضعى ولكنه يشمله فى جوفه فى ذات الوقت .

ولا يدرك غالبية من يعملون فى مجال علم النفس اهمية الفلسفة او الجدل لانهم اما ببساطة لا يدرون عنها شيئا ، فمعظمهم من الذين تخرجوا من كليات التربية وتخصصوا فى علم النفس " على كبر " ، فلا يعرفون الجدل ولا السلب ولا النفى ولا الانتقاد ولا الافكار ولا أن المعرفة تبدأ بكلمه " لا " او انهم من المعادين للفلسفة والاجتهاد النظرى والقانعين بترجمه الاختبارات الامريكية او التابعين للسلوكية نحن اذن كما يقول عبد الفتاح امام(1) نبغى احياء ملكة السلب التى ضاعت عندنا تماما ،فكل حياتنا ايجاب ، ونحن احوج ما نكون الى الفكر الجدلى الذى

---

(1) د. عبد الفتاح امام ،جدل الانسان ،دار التنوير، بيروت ١٩٨٤ (ص ٢٤٥) .

يضطرنا فى جميع لحظات الحياة الفكرية الى ان نعيد بناء المعرفة كلها ، اما المعارف التى لا تكون موضع سؤال فانها تتحول فى النهاية الى عقبة فى وجه تقدم المعرفة . فلدينا من الاجوبة الجاهزة اكثر الف مره مما نطرح من اسئلة ولهذا فنحن متوقفون عن النمو الروحى او العقلى ان شئتم .

ولقد كانت محاولة بوليتزير - فى اعتقادى - محاولة للخروج من نطاق الفهم الجامد الذى فرضته الماركسية الرسمية على المفكرين . فمجرد اختيارة " للدراما " موضوعا لعلم النفس يعنى انه يرفض الفهم الباقلوفى لعلم النفس ، وبالتالى السلوكية التى مال اليها حيناً بعض المفكرين الفرنسيين فى علم النفس . يقول لوسيان سيف(١) ان بوليتزير قد ابدع فى نقدة للتصنيف المجرد للوظائف العقلية التى كان علم النفس فى وقته شديد الاعجاب بها ، ولكنه لم يحاول تقديم بديل ، انما رسم بدايات مهمة يجب على الخلف ان يتابعوها ،وانها لا تقدم هى نفسها حلا ، ثم يقول ان المهمه هى تأسيس علم نفس جديد مستقل عن علم النشاط العقلى وعلم السلوك وهو ما يقابل بشكل او بآخر علم الدراما الذى اقترحه بوليتزير ، او ما يسمية " سيف علم الشخصيه " .

وقد اخطأ بوليتزير - نظرا لظروف علم النفس فى ذلك الوقت - عندما قال فى نهاية كتابه أن السيكوتكنيك أى الاختبارات النفسية واستخدامها هو الطريق لوضع افكاره موضع التطبيق ، ولكن ذلك

---

(1) Luceinseve,„Marxism and theory of personality„ Lawerance & Wisheirt, London,1975 p. 36.

لا ينفى عن فكرته اللامعة عبقريتها وضرورة متابعتها فالاختبارات النفسية ينظر اليها هذه الايام بشئ كثير من التحفظ . فقد اجرت الجمعية النفسية البريطانية استفتاء بين اعضائها عام ١٩٨٠ (١) بشأن ارائهم حول استخدام الاختبارات النفسية فأجاب احدهم " اتوقع ان الاختبارات كما نعرفها اليوم سيكون مصيرها مصير الفرينولوجيا " . ولم تكن كل الاجابات بهذا التشاؤم وان انتقد معظم الاعضاء موقف الاختبارات وطالبوا بأن تكون " اقل اكاديمية " وان " تتوجه الى الحياة اليومية المعاشة " وان تكون " اكثر تحفظا فيما تدعيه لنفسها " وأن " هناك توسع مبالغ فيه في الوان الاختبارات "..... الخ.

هذه بعض الافكار الانتقادية التى دارت برأسي عند تقديم الطبعة الثانية من هذا الكتاب القيم ارجو ان يتقبلها الجميع بصدر رحب ،فما قصدت الا الخير .

لطفى فطيم
كلية الاداب ـ جامعة صنعاء
١٩٨٦

---

* *The use of tests by psychologists: Report on a survey of B.P.S members, „Barbara Tylerand Ken Miller„*

* *Buuetin of the B.P.S. Nov. 1986 Vol.39 (403 - 410).*

La Crise de la Psychologie Contemporaine

par

Georges Politzer

تصدير

بقلم: الأستاذ الدكتور مصطفى زيور

يضم هذا الكتاب مقالين نشرا عام ١٩٢٩ فى العددين الوحيدين اللذين ظهرا من « مجلة علم النفس العيانى » (١) بقلم الفيلسوف الفرنسى الماركسى جورج پوليتزر . ثم جمع زملاء پوليتزر — بعد اعدامه ابان الاحتلال النازى — هذين المقالين عام ١٩٤٧ فى كتاب بعنوان « أزمة علم النفس المعاصر » ولا شك أن القارىء سيتساءل عن وجه الحاجة الى ترجمة مقالين نشرا منذ نحو أربعين سنة ، فضلا عن وجه الصواب فى الاحتفاظ بالعنوان «أزمة علم النفس المعاصر». والجواب بسيط ، اننا نعتقد أن النقد الذى وجهه بوليتزر لعلم النفس الذى عاصره فى أواخر العشرينات لا يزال معظمه يصلح نقدا لعلم النفس فى السبعينات . ويكفينى أن أذكر للقارىء أنه لا يوجد حاليا فى فرنسا ولا فى أى مكان له نصيب من الثقافة الفرنسية — لا يوجد مشتغل بعلم النفس أو الطب النفسى أو التحليل النفسى أو الفلسفة من يجهل اسم محرر هذين المقالين والمفهوم الذى أبرزه،

(١) مجلة علم النفس العيانى La revue de psychologie concrète

أعنى « الدراما » بوصفه ما ينبغي أن يكون عليه محور أى بحث فى علم النفس ، على النحو الذى ناقشه فى كتابه الذى صدر سنة ١٩٢٨ بعنوان « نقد أسس علم النفس » . ولعل القارىء يزداد اقتناعا بقيمة نقد بوليتزر الذى نقدم بعضه فى هذا الكتاب اذا ذكرنا له أن الفيلسوف الفرنسى الكبير الراحل موريس مرلوبونتى جعل بين مراجعه فى كتابه المعروف « ظاهريات الادراك الحسى » كتاب بوليتزر المشار اليه كما ان الفيلسوف الطبيب النفسى الكبير « منكوفسكى » ضمن كتابه الذى ظهر سنة ١٩٦٧ بعنوان « بحث فى علم النفس المرضى » نقد بوليتزر ومفهوم الدراما السابق ذكرهما وأخيرا وليس آخرا ، فقد قامت أكبر دار للنشر فى فرنسا أعنى Presses Universitaires de France باصدار الطبعة الثانية لكتاب بوليتزر « نقد أسس علم النفس » سنة ١٩٦٧ أى بعد أربعين سنة من صدور الطبعة الاولى ، وهو أمر لا يظفر به الا أمهات الكتب التى تبقى على مر السنين وتدخل فى سجل الانتاج الفكرى الدائم ..

وقد بدأ الاستاذ لطفى فطيم ترجمة «أزمة علم النفس المعاصر» فى أوائل العام الماضى بوصفه النص الوحيد المتاح من نقد بوليتزر حيث أن كتابه « نقد أسس علم النفس » كان قد نفد من زمن بعيد . والآن وقد ظهرت منذ بضعة أشهر الطبعة الثانية لكتاب « نقد أسس علم النفس » فانى أرجو ان يقدم الاستاذ فطيم على ترجمة هذا الكتاب النفيس وان تقوم دار الكاتب العربى بطبعه ونشره حتى تكتمل لدى القارىء المختص والقارىء المثقف غير المختص صورة هذا النقد الفلسفى لأسس علم النفس الذى أعتقد ان القارىء العربى فى حاجة اليه لاكثر من سبب أكتفى بذكر بعضها :

أولا : من الملاحظ أن حظ القارىء العربى من الانتاج الفكرى الفرنسى فى ميدان علم النفس أصبح ضئيلا منذ الحرب العالمية

الثانية بالقياس الى حظه من الانتاج الانجلوسكسونى ، على الرغم من أن هذا الانتاج الاخير لا يغطى كل ميادين الدراسات السيكولوجية وخاصة ميدان النقد الفلسفي للدراسات الانسانية المعاصرة الذى يستثير اهتماما كبيرا فى فرنسا ومعظم دول أوربا الغربية لما لهذا النقد من خطر فى توسيع أفق الباحثين وبيـان ما ينبغى عليهم أن يفطنوا اليه من جدوى هذا النهج أو ذاك من البحث ، وما يقتضيه ذلك من استبصار بموضع أقدامهم من الدرب الذى يسيرون عليه ومن مراجعة لما يعتنقون من المصادرات والمحكات والضوابط ومكانة هذا كله من أهداف العلوم الانسانية بعامة والسيكولوجية بخاصة على النحو الذى يتطلع اليه معاصروهم حتى يجنبوا أنفسهم مزالق الدجماطيقية المدرسية أو العزلة عن تيارات فلسفة التصور والبحث فى العلوم الانسانية لدى معاصريهم • وليس بخاف أن بعـض الاكتشافات العلمية الكبرى تحققت بفضل نقد فلسفى منهجى مهد الطريق لهذه الاكتشافات ..

ثانيا : يبدو لى أن جمهرة علماء النفس العرب ينصرفون عن الاطـلاع على الانتاج الفلسـفى المعاصر ، وان أكثرهم انصرافا هم هؤلاء الذين بدءوا دراساتهم العليا بدراسة الفلسفة ، وقد وضح لى من مناقشاتهم ومما يكتبون ، أنهم ينظرون الى الفكر الفلسفى نظرة ارتياب وحذر ، وحجتهم فى ذلك أن علم النفس لم يقف على قدميه بوصفه علما الا بعد اطراح منهج التأمل الفلسفى والالتزام بمناهج العلوم المضبوطة ، ومن ثم فان العهد السـابق على هـذا الالزام انما هو فيما يرون بمثابة « عصر الجاهلية » فى علم النفس فكان شأنهم شأن الأطباء فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن فى تشبثهم بمناهج علوم الفيزياء والكيمياء فى تفسـير الوظائف الفسـيولوجية فى الصحـة والمرض جميعا طبقا لتعاليم هلمهولتز بالاضافة الى قواعد البحث التشريحى الهستولوجى أى

علم الباثولوجيا Structural Pathology على النحو الذى أرسى قواعده « ڤيركاو » • وبلغ من شدة اعتناق الاطبـــاء لمنهج العلوم «المضبوطه» ان التزموا بها فى ميدان الامراض العقلية والنفسيه ، وانحصر البحث فى اصول هذه الامراض ــ حقبه طويله ــ فى التفحص الميكرسكوبى خلايا المخ ، أملا فى انتشاف الخـــلايا التالفة ونوع التلف الذى كان علة المرض العقلى أو النفسى • فلما تبين أن أكثر الأمراض العقلية انتشارا وهى **الفصام** بأنواعه ومرض الهـــوس والاكتئاب ، فضـــلا عن الامراض العصابية على اختـــلاف أنواعها لا ترجع الى أى نوع من التلف فى خلايا المخ ، ولا الى أى اضطراب فى كيمياء الخلايا العصبية اضطر أطباء النفس بعد تردد الى الاصغاء الى قضايا التحليل النفسى ومكتشفاته « الســيكولوجية » أى الى العلية النفسية ، حتى وضح بما لا يقبل الشك أن فى الجنون عقلا• وبعبارة أخرى فان الحتمية السيكولوجية ــ وهى لا تستبعد احتمال أصول عضوية رغم انها لا تزال مجهولة ــ تشير الى وجــود عليـة نفسيه فى تكوين الاعراض أى وجود معنى ودلالة فى العقل والجنون جميعا • وقد أبرز هذا المفهوم الجديد فى الطب النفسى الفيلسوف الوجودى والطبيب النفسى الالمانى الكبير كارل ياسبرز ــ وهو ليس محللا نفسيا ــ فى كتابه المشهور « علم النفس المرضى العام » (١٩١٣) عندما فرق بين « التفسير » و « الفهم » من حيث أن ظاهرات العلوم الفيزيائية تكون موضع تفسير على ، على حين ان طبيعة الظاهرات النفسية المرضية تقتضى أن يتجه التفسير فيهـــا وجهة « الفهـم » السيكولوجى أى ادراك المعنى • فاذا نظرنا فى الأمراض العضوية فى الطب العام ــ تلك التى قامت بصـــددها تعاليم « هلمهولتز » و « فركاو » السابق ذكرها ــ وجدنا طائفة منها وهى التى اصطلح على تسميتها منذ نحو ثلاثين سنة : الأمراض النفسية الجســـمية Psychosomatics (قرحات المعـــدة والاثنى عشر وضـــغط الدم

الجوهري وأمراض الحساسية وما اليها) يمكن وراء أعراضها العضوية مشكلات نفسية • والطريف في الأمر هنا أن السبب الرئيسي في أن الطب ظل عاجزا ازاء هذه الامراض طوال نصف قرن من الزمان هو نفس التعاليم التي يرجع الفضل اليها في تقدم الطب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن ، أعني تعاليم « هلمهولتز » و « فركاو » في التشبث بمناهج العلوم الفيزيائية الكيميائية والفحص الميكرسكوبي • وعندما وضح أن الأعراض العضوية في الأمراض السيكوسوماتية يقتضي تفسيرها فهما «للعنصر الانساني» طبقا لمكتشفات التحليل النفسي في ميدان أمراض النفس ، تغلب الطب على عجزه في تناول الأعراض العضوية في الامراض السيكوسوماتية وعلاجها • أما « العنصر الانساني » فهو ما يعبر عنه بوليتزر بكلمة « دراما » مستبعدا المعنى « المأسوي » للكلمة ، أو كما يقول في كتابه « نقد أسس علم النفس » علم النفس بضمير المتكلم La Psychologie en première personne بوصفه النمط المنهجي الذي يرتضيه في علم النفس عندما يحيل الامر كله الى « الأنا » في مواجهة ديالكتيكية مع « أنا » آخر وهو ما يعبر عنه مرلوبونتي في قوله « انه المعنى الذي يبين في تقاطع خبراتي بخبرات الآخر ، بتشابك هذه بتلك » ، ومن ثم فان النمط المنهجي في علم النفس بضمير الغائب
La Psychologie en troisième personne
في اصطلاح بوليتزر انما ينقل علم النفس الى ميدان العلوم الفيزيائية ، وهو خطأ منهجي يقضي على فهم الانسان بما هو انسان ، ويبرز الخطأ الابستمولوجي الصارخ الذي يبين عندما يتضح أن الطب العضوي أضحى أكثر سيكولوجية من السيكولوجيا ••

وخليق بنا أن نتساءل ما هو حال السيكولوجيا الرسمية المعاصرة ـ أي بعد مرور أربعين سنة على نقد بوليتزر • أن الأمر

مع السيكولوجيا المعاصرة يتلخص فيما أرى ـ اذا أردنا الايجاز ـ فى أنها وقعت في نفس الخطأ الابستمولوجي الذى وقع فيه الطب . فقد أراد علماء النفس لعلمهم أن يدخل حظيرة « العلوم المضبوطة » ويحظى بما تحظى به هذه العلوم من الدقة والاحترام ، فاصطنعوا أدوات القياس الفسيولوجى فى معامل علم النفس ، وانتهوا الى نتائج ما كان يمكن أن تكون الا من قبيل ما يحصـــل عليه علماء وظائف الاعضاء ـ نتائج لا تلقى أى ضوء على الانســـان بما هو انسان . وعندما تبين أن الأمل الذى تولد لدى علماء النفس عندما اكتشف بافلوف « الأفعال المنعكسة الشرطية » فى أن يصبح علم النفس « علما مضبوطا » لم يكن الا سرابا ، من حيث أن الأفعال المنعكسة الشرطية لا تفسر بناء السلوك وانما هذا البناء structure هو الذى ينظم الافعال المنعكسة الشرطية وانتهت بذلك قصـــة « السلوكية » ، كما صاغها واطسون ـ لم يبق بعد ذلك فى الميدان من محاولات « الضبط » الا تياران : تيار القياس السيكولوجى فى موضوع « الشخصية » وتيار نظريات التعلم .

أما عن نظريات التعلم ، فليس بخـــاف أنها بعض مخلفات السلوكية ، وقد وصل بعض هذه النظريات ـ مثل نظرية ك . هل أبرز أصحاب نظريات التعلم ـ الى درجة من التعقيد فى صياغتها الرياضية بما فيها من مسلمات ولوازم المسلمات واصطلاحات فنية مما يذكرنا بنظريات الفيزياء المصاغة رياضيا . فاذا تساءلنا عما يمكن أن نفيده من هذا التعقيد النظرى وجدناه عاجزا عن أن يتخطى المستوى الفسيولوجى : طاقة رد الفعل والكف الرجعى وما الى ذلك من المفاهيم التى تفترض ان الانســـان جهاز قائم بذاته من ردود الافعال وكفها .

واذا بحثنا في غضون هـذا النظـام النظـرى الذى يبهرنا

بمعادلاته الرياضية عن الانسان بما هو انسان ، عن هذه العلاقة الحميمة حاملة « المعنى الذى يبين في تقاطع خبراتى بخبراتك » — اذا تساءلنا عن أحوال الانسان ومصيره ، هذا الذى يطلق عليه فى العبارة الفرنسية التى يصعب ترجمتها La condition humaine لا نجد لشىء من ذلك اجابة شافية فى نظرية هل ، لانها نظرية بضمير الغائب باصطلاح بوليتزر ، لا يعرف « أناى » ماذا يصنع بمفاهيمها الفسيولوجية — الفيزيقية . انها كغيرها من نظريات التعلم تفترض ان علم النفس One body psychology على حين ان أبسط تفكير فى «دراما» الانسان ، هذا الذى يجعله سعيدا أو شقيا لايمكن أن يكون الا Two body psychology ، ثم Three body psychology وهكذا .. واذا اتخذنا من تطبيق نظريات التعلم فى ميدان العلاج النفسى ذلك التطبيق المسمى Behaviour therapy محكا نزن به جدوى هذه النظريات ومنطقها وجدنا عجبا .. فها هو البروفسور أيزنك يعقد مقارنة بين التحليل النفسى والعلاج السلوكى فيكتب: ان التحليل النفسى يعتبر الأعراض العصابية نتائج صراعات لا شعورية على حين أن العلاج السلوكى العلمى يعتبر الأعراض استجابات شرطية لا توافقية ، وأن التحليل النفسى يعتبر الاعراض العصابية شواهد على « الكبت » فى حين ان العلاج السلوكى يعتبرها شواهد على « تعلم خاطىء » ، وأن التحليل النفسى فى علاجه يتناول الاعراض بوصفها نتائج لخبرات تاريخية (ماضية) على حين أن العلاج السلوكى يتناولها بوصفها عادات قائمة حاليا وأن النظرة النشوئية (التاريخية) لا قيمة لها . وأن التحليل النفسى يرى أن الشفاء مرهون بتناول الديناميات اللاشعورية القابعة تحت الاعراض ولا يتناول الاعراض نفسها على حين أن العلاج السلوكى يحقق الشفاء بعلاج الاعراض نفسها وذلك « باطفاء» الاستجابات الشرطية التى يعوزها التوافق وينشىء بدلا

منها استجابات شرطية مناسبة وأن التحليل النفسى يعتمد على تفسير الاعراض والاحلام والهفوات على حين أن العلاج السلوكى يعتبر هذا التفسير لا قيمة له ولا جدوى منه وأخيرا فان التحليل النفسى يرى أن تناول الطرح Transference أمرا أساسيا فى شفاء العصاب على حين أن العلاج السلوكى يرى أن العلاقة الوجدانية التى تقوم بين الطبيب ومريضه ليست من ضرورات الشفاء • وهكذا يتضح منطق نظريات التعلم الذى يستند اليه العلاج السلوكى ويبين انها تعتبر الانسان منفصلا عن ماضيه ، منفصلا عمن يعيش معهم من الناس (لا قيمة لظاهرة التحويل) قائما بذاته وفى ذاته ، فاذا كان شقيا فذلك لأنه لم يحسن تعلم العادات الجيدة ••

والنتيجة المنطقية من ذلك أن الأعراض العصابية لا تحمل معنى ولا دلالة وأن شقاء الانسان وسعادته فى خبراته المعاشه مع غيره من الناس لا معنى لها ولا دلالة • أما التراث المعرفى المتراكم من خبرات مئات من أطباء النفس المعنيين بالعلاج النفسى زهاء ثمانين عاما فمكانه سلة المهملات ـ باسم « العلم » •

أما تيار القياس السيكولوجى فى موضوع الشخصية فيمثله فرسان ثلاثة هم « كاتل » ، و « جلفورد » و « أيزنك » ويتلخص الامر معهم في انهم نقلوا أساليب القياس التى أثبتت جدواها فى ميدان القدرات العقلية الى ميدان لا تصلح له اذا كان الهدف هو « الفهم » والتفسير الفاهم : أى ميدان الشخصية • ويكفينى هنا ـ بغية الايجاز ـ ان أسجل ما يقوله فى هذا الصدد أبرز علمائنا العرب فى هذا الميدان تلميذ ايزنك : الدكتور مصطفى سويف الذى يعتبر ثقة فى المستوى الدولى بما نشر من بحوث ممتازة • يقول د • سويف فى كتابه القيم : « علم النفس الحديث • معالمه ونماذج

من دراساته » (صفحة ١٩٩) ، وبعد • فماذا نفيد من هذه الصورة ؟ (ابعاد الشخصية الانسانية) هذه الصورة تقدم لنا اطارا أساسيا لتصنيف جميع مظاهر النشاط النفسى • انها لا تقدم لنا تعليلا أو تفسيرا لهذه المظاهر • يجب أن يكون هذا واضحا حتى لا نطالبها بما لا يتفق وطبيعتها • انها تقدم تبويبا أو تنظيما فحسب •• » وفى اعتقادى انى لم أعد فى حاجة الى التعليق وانما أصيغ المسألة على النحو الآتى : لا يمكن لأى عالم مخلص أن ينكر ما فى دراسات أبعاد الشخصية من صفات الدقة والضبط العلمى وجدواها فى ميدان التشخيص الطبنفسى • ولكن يبقى بعد ذلك اننا فى مجال الشخصية نقف فى حيرة Dilemma بين دقة العلم العاطل عن التفسير الفاهم وثراء التفسير الفاهم كما تقدمه لنا مكتشفات التحليل النفسى العاطلة عن الدقة العلمية من النمط المألوف فى العلوم الفزيائية •

وحسن الحظ - حظ العلم أو قل المعرفة بعامة - ان مصير علماء النفس فى هذه الحيرة يختلف عن مصير حمار بوريدان الشهير • L'âne de Boridane

فبعضهم يلقون بقضايا التحليل النفسى فى اليم فرحين فرح من يتخلص مما يؤذيه ويشمرون عن ساعد الجد فى سبيل المزيد من القياس ، كما هو الحال مع البرفسور ايزنك • والبعض الآخر - مثل البروفسور لاجاش استاذ علم النفس بالسربون - لا يرون فى الأمر حيرة على الاطلاق ، فيقول لاجاش : « وما الصراع بين علم النفس التجريبى (المصطنع لأساليب القياس) وعلم النفس الاكلينيكى (المصطنع لمنهج التحليل النفسى) غير مرحلة ولت من تاريخ علم النفس » • ولكنى أخشى ان ما ذهب آليه الزميل لاجاش انما هو من قبيل « تحقيق الرغبات » •• حقا ان ثمة دراسات تجريبية

اتخذت موضوعا لها « الديناميات » النفسية التى هى الموضوع الأساسى للتحليل النفسى ، غير أن هذه الدراسات لا تعدو أن تكون تحقيقا هزيلا لبعض الديناميات النفسية الثانوية . أما الموضوع الأساسى لعلم النفس كما يراه المحللون النفسيون هو هذا الحوار الديالكتيكى بين « الانا » و « الانا الآخر » ، بين « الأنا » و « الأنت » ، حوار درامى لا ينفك صاعدا هابطا متأرجحا تأرجح أحوال الانسان مما يجعل مهمة الضبط العلمى عسيرة - ولا ينقطع الا بانقطاع الحياة النفسية كما هو الحال فى المرض العقلى المستفحل ، حيث يحل محل الحوار الديالكتيكى المستند الى تعيين الذات Identification بذات الآخر - حوار اجترارى تتفادى به الذات الالتقاء الديالتيكى بذات الآخر . ومن ثم فان المحللين النفسيين يرون أن اى دراسة فى علم النفس لا تتخذ هدفا لها هذه العلاقة « بين الذاتية » Intersubjectivity انما تقع خارج المرمى اذا صح استخدام لغة كرة القدم .

هذه الصياغة لموضوع علم النفس انما هى صياغة بلغة الستينات لما حاول بوليتزر صياغته بلغة العشرينات وهذا يفسر لنا لم اتخذ بوليتزر قضايا التحليل النفسى نماذج لما ينبغى أن يكون عليه موضوع علم النفس العيانى ذو الطابع الدرامى - بالرغم من النقد الذى وجهه اليها من حيث الصياغة النظرية فى كتابه « نقد اسس علم النفس » .

حقا أن بعض النقد الذى يصوغه بوليتزر فى هذا الكتاب قد استنفد أغراضه نتيجة لتقدم علم النفس فى الاربعين سنة الماضية ، ولكن يبقى بعد ذلك ما فى نقده لجوانب أخرى من علم النفس من الأصالة والعمق ما يجعله خليقا أن يفيد منه القارىء العربى . وليس أقل مآثر بوليتزر - وهو الفيلسوف الماركسى - أنه هاجم علم النفس

الرسمى فى نظر الماركسية أعنى علم النفس القائم على الافعال المنعكسة الشرطية وقبوله للقضايا الأساسية فى التحليل النفسى وهو العلم « البورجوازى » في نظر الماركسية « الضيقة » ٠ وليس من شك ان النقد الذى وجهه جان بول سارتر فى كتابه « نقد العقل الديالكتيكى » الى الماركسية عندما هاجم التموضع objectivism في المنهج الماركسى الذى يحاول رد الابنية النفسية العليا الى الأبنية الاقتصادية ودمغها بأنها تجهل الانسان بما هو انسان فى قوله « انها (اى الماركسية) فقدت تماما المعنى الذى يجعل من الانسان انسانا » ص ٥٨ أقول أن هذا النقد لا ينطبق على پوليتزر ـ بالرغم من بعض تردده بصدد العامل الاقتصادى ـ من حيث أن پوليتزر أبرز مفهوم « الدراما » بوصفه المحور الذى ينبغى أن يدور حوله البحث فى علم النفس وهو كما ـ سيتضح للقارىء من صفحات هذا الكتاب ـ مفهوم يلح على «الموقف الانسانى» ، وعلم النفس بضمير المتكلم التى تكاد أن تكون ارهاصات لمفاهيم « المواقف » لدى سارتر ومفهوم « الوجود مع » mitsein ، لدى الوجوديين بعامة ـ على الرغم من أن هذه المفاهيم تعتبر فى نظر بعض الماركسيين مفاهيم « بورجوازية » ٠٠

بقيت كلمة عن الفلسفة المادية الجدلية التى يعتنقها المؤلف ٠ أما عن الجدل « الديالكتيك » فليس بخاف أنه أضحى مفهوما أساسيا فى الفلسفة المعاصرة كلها بل فى العلم المعاصر ، فضلا عن أنه مفهوم أساسى فى التحليل النفسى ، بالرغم من أن فرويد لم يستخدم هذا المصطلح ، فالصراع بين جوانب الشخصية والتسوية بين القضية ونقيضها فى جماعيهما (These, antithese, synthese) على نحو موفق هو الصحة ونحو غير موفق هو المرض انما هى نماذج واضحة لمفهوم الديالكتيك الثرى ٠

أما عن المادية فلست أرى أن على عالم النفس ان يختار بينها وبين المثالية ، من حيث أن المادية تنسب فى نهاية الأمر الى المادة القدرة على التفكير ، وفى اعتقادى أن مرلوپونتى حسم الأمر بالقياس الى عالم النفس فى هذا الصدد في قوله فى كتابه « بناء السلوك »: « طالما أننا نواجه سلوك الانســان « فى وحدته » وفى كليته ، فلسنا ازاء واقعة مادية ولا ازاء واقعة نفسية وانما نحن ازاء كل دال (حامل للمعنى) أو بناء لا يحق لنا نسبته الى العالم الخارجي ولا الى الحياة الداخلية • ان الأمر هنا أمر الواقعية Réalisme بوجه عام » ص ٢٤٧ ••

والى الزملاء اسوق هذه الكلمة الختامية : فى اعتقادى انهم لا ينصفون علم النفس باعراضهم عن الاطلاع على الانتاج الفلسفى المعاصر ، هذا الانتاج الذى انزل الفلسفة من السماء الى الأرض أو على الأصح الى دنيا الانســان • ان الانســان بلحمــه ودمه ، بشقائه وســـعادته هو موضـــوع فلسفة الظاهريات الوجودية المعاصرة ابتداء من كيركجارد وهسرل الى ياسبرز وهيدجر ومرلو بونتى وسارتر • وانى اسألهم • لم يشغل الفلاســفة المعاصرون انفسهم بـ « الهــم » ، وبـ « القلق » بوجود الانســان على حافة العدم • لم يشغلون أنفسهم بدراما الانسان وتراجيديته ، بمــا تنضح به حياة الانســان من « عبث » irrational ولا معقول absurde ـ لم يشغلون انفسهم بذلك كله الا لأننا نحن علمــاء النفس لم نقدم لهم اجابات شافية عن استفساراتهم • ثم لم يتجه رواد الطب النفسى المعاصر الى فلسفة الظاهريات والوجودية وهم قوم تحفزهم اهداف عملية هى الشــفاء لمرضى العقل والنفس وحاجتهم الى « فهم » مصادر أخطر ما يلم بالانسان ، على الرغم من التقدم العظيم فى ميــدان الأقرباذين الطبنفسى ، وعلى الرغم مما

أفادوه من قضايا التحليل النفسى .. لست أشك فى أن السبب لا يخفى .

وبعد فهل نسى الزملاء أن كل رصيد قضايا الجشطالت نبع من فلسفة هوسرل مباشرة كما يقرر ذلك Boring فى كتابه «تاريخ علم النفس التجريبى» وان نظرية المجال لدى ك . لفين انما هى امتداد للجشطالت وانها فضلا عن ذلك استوحت فلسفة كاسيرر كما يقرر ذلك لفين صراحة (١) ، وان مناهج القياس الاجتماعى (السوسيومترى) كما يقرر مورينو (٢) أثرت فيها فلسفة برجسون تأثيرا حاسما . وبعد ، فمهما يكن من أمر فلا خوف على علم النفس ولا على علمائه ولا هم يحزنون ما دامت القافلة تسير . وهى تسير ..

د . مصطفى زيور

(١) K. Lewin : « Cassirer's philosophy of science and the social sciences », in « The Philosophy of Ernest Cassirer », Library of Living Philosophers, Evanston, Illinois, 1949.

(٢) Moreno, J. : « Who shall survive », Bacon House, N.Y., 1953

البابُ الأول

علم النفس الأسطوري وعلم النفس العلمي

ان السيكولوجيا الجديدة أى المختلفة عن السيكولوجيا النابعة من محاولات نهاية القرن الماضى بما تتضمنه من قضايا التأكيد والنفى المتصلة بهذه المحاولات - هى اليوم حقيقة اذا لم تكن ثابتة ثبوتا فهى على الأقل أمل يرتجى • وبالرغم من الجهود التى يبذلها كل يوم « دعاة المبادنة » لاظهار كفاية البناء الأساسى لسيكولوجيا الأمس فى مواجهة المتطلبات التى تحملها الحركة الجديدة ، فان الدراسة التى نحن بصددها تبدأ من تأكيد عدم كفاية السيكولوجيا القديمة وشرعية أهداف السيكولوجيا الجديدة • ووسط الأسف والتردد من جانب غالبية السيكولوجيين فقد قررت دراستنا الحالية بحزم أن تعتمد على المحاولات السيكولوجية الحديثة التى تحاول أن تنفصل عن أسس السيكولوجيا القديمة تلك التى حظيت من زمن طويل باحترام « التعليم الرسمى » •

ان الوحدة هى بالتأكيد الحاجة الملحة لعلم النفس اليوم • ولكن بناء علم لا يتضمن فقط الادراك الواضح لأسسه وانما يتطلب فى الوقت نفسه ازالة الأشكال الأسطورية وقبل - العلمية التى تمر بها كل العلوم • وطالما أن أى علم من العلوم لا يمكن أن يكون وضعيا فى صورتين معا أو فى صور عديدة فان ازالة كافة الصور الخاطئة أو الناقصة يجب أن يصدر عن موقف موحد •

واذا كانت الوحدة يجب أن تكون الموضوع الأساسى فى البرنامج الدراسى فعلى الدراســة الحالية الابدع الوحدة فى الوقت نفسه تنحدر الى « الحل الوسط » وتبسيط الموقف الحالى بحيث نجد فى ناحية ، السيكولوجيا التى هى غير وضعية على الاطلاق وفى ناحية أخرى تلك التى تريد أن تكون وضعية بشكل مطلق • وهذه هى فى الحقيقة الثنائية الرئيسية التى توجد فى أساس كافة العلوم بالمعنى الدقيق للكلمة ، والتى منها صدرت العلوم فى سبيل الوصول الى تلك الوحدة التى نرغبها اليوم للسيكولوجيا •

ومن الواضح ان الحاجة الى نقد الســيكولوجيا الكلاسيكية وارساء أسس السيكولوجيا الجديدة هى اليوم أكبر مما كانت عليه بالأمس • ومع أن هذا المشروع المزدوج لا يمكن أن يتحقق بواسطة أفراد منعزلين ولا بواسطة اتجاهات بعينها ، الا أنه فى الواقع لا يتولى هذه المهمة الآن الا أفراد معزولون واتجاهات خاصة •

فرؤية الأخطاء وادراك الاصلاحات التى يجب انجازها لابد أن تنبع بالتأكيد من أبحاث وضعية وهى بالضرورة خاصة ، ولكن لا يمكن أن يؤدى أى بحث خاص مهما كانت قيمته الوضعية الى ذلك وحده اذ لن يصل الى الرؤية المتكاملة للأخطاء ولا الى ادراك الاصلاحات فى شمولها وتدفع الأبحاث الخاصة المعزولة عن بعضها البعض أصحابها الى أن يستعيضوا عن التعميق الكامل للنقد الذى يقدمونه وعن الاصلاحات التى يتطلبها هذا النقد « بحلول وسط » وأبنية نظـرية لا تؤدى من بعض الوجـوه الا الى عرقلة التقـدم الحقيقى •

ونحن نرى اليــوم اتجاهات بعينهـا تكتفى بتأكيــدات « دوجماطيقية » (تقريرية) ـ بالمعنى المعروف لدى (كانط) لهذه الكلمة ـ حول نقاط هى نفسها التى ينفيها اتجاه آخر بنـاء

على نقد منظم • ويستبدل البعض الآخر « الحل الوسـط » مع السيكولوجيا الكلاسيكية أو بناء لفظيا بحت بالتعديل الذى هو الغرض الجوهرى وسبب الوجود لقيام اتجاه آخر حديث ، ويقـوم البعض الآخر على أساس ادراك ناقص لنقد أو لتعديل نظرى أو منهجى بينما نجد لدى اتجاهات عديدة أخرى النقد الكامل والمدقق لنفس النقد أو الفكرة أو المنهج •

ونرى بعد جميع هذه الاتجاهات تقريبا تبحث عن السيكولوجيا الجديدة هنا وهناك كما لو كانت نوعا من حجر الفلاسفة ناسين ان هنـاك أبحاثا قدمت لا مجـرد تحسينات بسـيطة للسيكولوجيا الكلاسيكية بل فكرة أساسية وجديدة تماما ـ على الأقل بالنسبة للسيكولوجيين ـ تبدو فى نهاية الأمر انهـا ••• السيكولوجية الوضعية •

واذا كان من غير الشرعى ومن العبث انتزاع الاختصاصيين من أبحاثهم الخاصة فان هذه الحالة من الفهم التى تسمح اليـوم لكل سيكولوجى أن يحدد بدقة الظاهرة التى يشغل نفسه بها باعتبارها ذات دلالة خاصة ، هـذه الحالة تعود ببساطة الى ان عدم اتفـاق الرأى حول المجال الصحيح لعلم النفس ، لا يسمح بمعرفة دقيقة لما هو أساسى بالفعل وما هـو ليس كذلك وتجعل الأمر على غير مانحب ومن ثم يجب أن نعتاد على فكرة أن كل مايخص أسس علم النفس لا يمكن تحقيقه بصفة نهائية الا بالعمل الجماعى اذ أن أى نظام فردى هو دائما بناء تعسفى وأن العمل الجماعى وحده يستطيع أن يصل الى هذا النظام الذى نسميه علما •

ان تحقيق هـذا الهدف الأخـير لن يتم الا بالتدريج ويتوقف بطء أو سرعة هذا التقدم على مواقف مختلف الاتجاهات التى يحتاج الأمر الى تنظيم تعاونها ولن نستطيع التقدم نحو ماهو أساسى الا بقدر

ماتتيحه لنا ذلك الحالة التى بلغتها البحوث السيكولوجية نفسها ومع ذلك نستطيع أن نبدأ من الآن الصراع ضد بعض الاتجاهات المسئولة أساسا عن الفوضى فى الموقف الراهن لعلم النفس ٠

علينـــا بادىء ذى بدء أن نخلص القرارات الخاصـــة بالطريقة الحقيقية التى تطرح بها مشكلة السيكولوجيا فى الوقت الحالى ، من التعسف الفـــردى أو الاقليمى ٠ اذ يميل أغلب السيكولوجيين الى التصرف كما لو كان الأمر يتوقف عليهم وحدهم فى تقرير ما هو مقبول وما يحتاج الى اعادة النظر فى مسألة سيكولوجيا الأمس دون الاهتمام بالوضع القائم فعلا حاليا ٠

ولذلك فانه من المنـــاسب تحـــديد المـــوقف الراهن لقضـــية السيكولوجيا وفحص كافة المشاكل التى تثيرها العلاقات القائمة بين مختلف الاتجاهات السيكولوجية الحديثة ٠ ولما كان هناك حتى الآن بعض السيكولوجيين الذين يعتقدون أن الحركة الجديدة قد وضعت كل شىء محل التساؤل ماعدا فرض « الحياة الداخلية » فيجب أن نبدأ بصفة خاصة بتأكيد نقد المذهب القائل « بالحياة الداخلية » فى كافة أشكالها ٠

ويجب فى نفس الوقت أن نقوض منذ الآن الاتجاه الذى يقوم على تركيز التفكير فى أسس علم النفس حول عدد معين من القضايا والأبحاث هى بعينها لا تتغير كما لو كان من المستحيل زحزحة مركز الثقل فى علم النفس ٠ والمشكلة المطروحة بالنسبة لكل القضايا هى احلال القرارات الجماعية محل القرارات الفردية أو الاقليمية ، واحلال المنهج محـــل التقاليد ، والأفكار النـــابعة من التعقل محـــل الأفكار المأثورة ، وفى النهـــاية خطة عقلية منطقية للعمل الجماعى بدلا من الآراء الفردية أو الاقليمية التى لا تعدو أن تكون محتملة فحسب ٠

- ١ -

يبدو – على الأقل للوهلة الأولى – ان علم النفس انما يعاني من مزيد من النقد لا من مزيد من الدوجماطيقية • فتاريخه منذ خمسين عاما يبدو أساسا أنه سلسلة من النقد : نقد السيكولوجيا الفلسفية القديمة على يد المدرسة المسماة « بالعلمية » ، ونقد السيكولوجيا «العلمية» على يد أتباع ڤوندت • ومن ناحية أخرى نقد سيكولوجية « العناصر » الأولى ، الميكانيكية على يد « سيكولوجيا عناصر » تدعى أنها ديناميكية (كبرجسون مثلا) • ثم نقد « سيكولوجيا العناصر » عموما على يد الجشطالت • ومن وجهة نظر ثالثة أيضا نقد السيكولوجيا التى لا ترقى الى الدلالات على يد سيكولوجيا الدلالات نفسها (١) ، وعلى الأخص نقد سيكولوجيا الروح على يد سيكولوجيا الشعور • وأخيرا نقد سيكولوجيا الشعور على يد السيكولوجيا التى لا تعترف بالشعور ولا بالحياة الداخلية عموما (مثل « السلوكية » لدى واطسن) •

ونقد قال « ليبنتز » عن الفلاسفة انهم على حق فى ما يؤكدونه ومخطئون فيما ينفونه • ويبدو أن الأمر على العكس بالنسبة للسيكولوجيين فهم مخطئون فى ما يؤكدونه ومصيبون فقط فى ما ينفونه • والحق أن التخلى عن السيكولوجيا الفلسفية القديمة كان شرطا حيويا بالنسبة للسيكولوجيا العلمية ، والحق كذلك أن

---

(١) يقصد المؤلف بسيكولوجية الدلالات ما كان يطلق عليه Geisteswissenschaftliche Psychologie أى السيكولوجيا بوصفها علما للظواهر النفسية (العقل) حاملة المعنى والدلالة « الانسانية » – وذلك فى مقابل ما كان يطلق عليه Naturwissenschaftliche Psychologie أى علم النفس بوصفه علما « طبيعيا » (مثل علوم النبات والحيوان الخ) التى تستبعد من ميدانها المعانى والدلالات الانسانية • (المراجع)

سيكولوجيا فوندت ليست هي السيكولوجيا العلمية الحقيقية ٠ وحقيقي أيضا أن مذهب الذرات الروحية لم يكن سوى خرافة ٠ الا أنه حقيقي كذلك أن دينامية برجسون مثلا ليست سوى خرافة أخرى ٠ وصحيح مرة أخرى ان السيكولوجيا التى لا ترقى الى الدلالات لاتستطيع أن تبلغ الانسان وبالتالى فهى ليست سيكولوجيا حقيقية ، وصحيح كذلك أننا بالدلالات الموضوعية لم نتغلغل كثيرا فى سيكولوجية الانسان وصحيح فى النهاية أنه ينبغى استبعاد الروح (النفس) من عداد الموضوعات التى يجب أن تبحثها سيكولوجيا وضعية ومن الصحيح فوق كل ذلك أن هذا ينطبق على الشعور نفسه وعلى الحياة الداخلية بصفة عامة ٠

فليس انعدام النقد اذا هو مايلفت النظر لدى السيكولوجيين فانهم لم يهملوه بل تفوقوا فيه وحققوا فى هذا السبيل تقدما ملحوظا ٠ واننا نشاهد اليوم فى الواقع حركة ثانية حول أسس السيكولوجيا ، ومن حركة لأخرى نشهد تعميق النقد بشكل حقيقى حتى رأينا نقد جوهر المشكلة يأتى فى أعقاب نقد الشكل ٠

وفى الواقع أن ممثلى الحركة الأولى النابعة من فوندت لم يأخذوا على السيكولوجيا القديمة سوى شكلها أى كونها تتحدث عن النفس وتمارس الاستبطان علنا ٠ الا انهم لم يفكروا قط فى نقد الجوهر أى الخطوات التى أدت — فى السيكولوجيا الفلسفية القديمة — الى المقاصد الميتافيزيقية والاستبطانية ، وكذلك مفاهيمها والمادة التى تنصب عليها تلك المقاصد : فاذا كانوا قد استبعدوا المذهب القديم فى الروح (النفس) فانهم لم يفكروا فى وضع ظواهر النفس التى لا تقل قدما موضع النقد ٠ وبدلا من اقامة سيكولوجيا جديدة حقا لم يفعلوا شيئا سوى الاحتفاظ بالقديم فى ثوب جديد ٠ وكذلك اذا كان نقدالارتباطية بدأ بهوفدنج ووليم جيمس ، فان هذا النقد لم يتناول الا الشكل ، ولم يبحث مسألة استبعاد هذه السيكولوجيا

التى يتركز موضوع بحثها فى الكشف عن طريقة ارتباط الظواهر النفسية ببعضها البعض بل انصب النقد فقط على الشكل الميكانيكى لمفهوم هذه العلاقة • وعندما شرع برجسون مثلا فى نقد السيكولوجيا الكلاسيكية بشكل عام ، لم يبحث استبعاد هذا الاتجاه الذى لا يعرف سوى المشاكل الوظيفية وانما استبعد أساسها الميكانيكى فقط ، وكل ما كان يريده فى الواقع هو أن يعيد قول التعاليم الكلاسيكية بألفاظ دينامية • وبالمثل فيما يختص بالمحاولات الموضوعية التى ترمى الى أحداث « ثورة كوپرنيكية » فى السيكولوجيا ، تتلخص فى الانتقال من الملاحظة الداخلية الى الملاحظة الخارجية ، وهى لا تعنى بالنسبة لبختريف ، مثلا الا أن السيكولوجيا يجب أن تعنى من الآن فصاعدا بمعطيات الملاحظة الخارجية وحدها • فكأن بختريف لا يعيب على السيكولوجيا سوى وضع تعاليمها فى لغة الاستبطان وكل ما كان يريده هو اعادة صياغة نفس هذه التعاليم ونفس الطريقة فى النظر الى الانسان بلغة الفعل المنعكس •

الا أن المطلوب ليس الاكتفاء بنقد الشكل الذى أعطته السيكولوجيا القديمة لتعاليمها ، بل المطلوب هو أن تنقد كذلك الخطوات والأساليب التى أدت اليها •

- ٢ -

وهكذا بعد فترة من الهدنة التى بدا أثناءها لغالبية السيكولوجيين أن السيكولوجيا قد تخطت نهائيا المرحلة قبل العلمية ، وأنها قد انتظمت نهائيا فى سلك العلوم ، تثار اليوم من جديد قضية الأسس • وهذا يعنى أن السيكولوجيين غير راضين عن النتائج • وفى الواقع فانهم يأخذون على السيكولوجيا الكلاسيكية

تجاهلها وحدة الانسان وكليته وأنها اكتفت بالتأليف بين عناصر لا دلالة لها وأنها نظمت تجارب شديدة التجريد لا تتصـــل الا بالمشاكل الوظيفية من المتعذر بل من المستحيل تكاملها فى الحياة الواقعية للانسان .. الخ . ويبدو كذلك أن هناك اجماعا حول هذه النقطة ، اذ أصبحت هذه الانتقادات فى نهـــاية الأمر حديثا معادا بينهم .

وقد يبدو أن السيكولوجيا الكلاسيكية وبها كل هذه المثالب قد أصيبت فى الصميم ، ولكن الأمر ليس كذلك . فما أن تكلم الممثلون المتقدمون للحركة الجديدة عن ثورة فى السيكولوجيا حتى قيل لهم أنه لا توجد أى هوة بين السيكولوجيا الجديدة وتلك التى اعتنقها الجيل السابق ، اذ يقال لهم بأن المطاعن التى توجـــه الى سيكولوجيـــا الأمس يمكن أن تنطبق عليها ، ولكنهـــا فى الواقع لا تنطبق لأنبـــا تتعلق بمرحلة تخطيناها من قبـــل (١) فاذا كان النقاد ينحون باللائمة على التحليل الى عناصر فان ڤوندت قد بين من قبل أن ناتج التركيب synthèse يختلف عن مجموع العناصر المكونة له ويتطلب دراسة مســـتقلة (٢) ثم اذا كان يؤخذ عليها تجاهلها وحدة الانسان وكليته فليس من العســـير اثبات أن هذه المسائل شغلت دائما بال السيكولوجيين فى الجيل الماضى ، وأن محاولات مثل محاولات برجسون قد اعتبرتها مركز مشاغلها . واذا وجه اللوم الى السيكولوجيا الكلاسيكية على اهمالها وجهة نظر الدلالات فيرد على ذلك بأن السيكولوجيا الكلاسيكية هى نفسها التى أكدت أهمية النظرة البيولوجية طارحة بذلك ضرورة دراســـة الوظائف السيكولوجية من وجهة نظر التكيف ، وبالتالى من وجهة نظر غائية محددة واضعة نفسها بذلك داخل مجال الدلالات . وفى النهاية من

---

(١) Buhler : Die Krise der psychologie, p. 70 ff.

(٢) Wundt Saupe : Ein fühung in die neuere psych. Osterwieck, 1928.

يجسر على أن ينكر على التجارب السيكولوجية الشبيرة قيمتها وحقيقتها ودوامها ؟

وهكذا يثبت « أنصار المهادنة » - الذين يستحقون لقب رجال الاصلاح - فى كل يوم ان لم نقل عدة مرات فى اليوم أن كل ماهو حسن فى السيكولوجيا الجديدة قد أرادته وتوقعته بل وحققته السيكولوجيا القديمة ، وماعدا ذلك مبالغة وراديكاليه رخيصة . فكيف نتحدث اذن عن قطيعة بين سيكولوجيا اليوم وسيكولوجيا الأمس ؟ واذا لم تكن هذه القطيعة موجودة فان مانتخذه أساسا للحركة الجديدة يفقد معناه ، فلماذا اذا نتحدث عن سيكولوجيا جديدة ؟

وهنا نجد أن القائمين بالنقد الجديد هم أنفسهم الذين مهدوا الطريق لحجج الذين يبخسون قيمته . ويبدو أيضا أنهم وجهوا انتقاداتهم بحيث يمكن التغلب عليها فورا . ولما وصلت المسألة الى تحديد الادانة بدا أن هؤلاء السيكولوجيين يخافون من الدرع المدرسى للسيكولوجيا القديمة الذى انهالوا عليه نقدا . فالغالبية منهم تشعر بحرج شديد أمام علم النفس التجريبى فهم يحسون أن به نقصا رهيبا ولكنهم يخشون - دون أن يتبينوا مصدر خشيتهم - رفض النتائج التى حققها علم النفس التجريبى خلال سنوات طويلة من العمل ، تلك النتائج المستخفية فى شكل دقة علمية بالغة .

ولجأت غالبيتهم الى الحيلة ، فركزوا نقدهم للسيكولوجيا الكلاسيكية على وجه واحد لها وأكدوا أن المطلوب هو تجديد جزئى . فعابوا على السيكولوجيا اهمالها (البناء) Structure وأدخلوا البناء فى حسابهم وبذلك اعتقدوا أنهم صاروا فى مأمن من اللوم . ولكنهم نسوا أنهم لو كانوا قد بدءوا من وجهة نظر البناء لوصلوا الى كافة المشاكل التى تنطبق عليها اليوم وجهة النظر هذه . وهكذا أفلت من النقد كل ماهو متضمن فى الطريقة التى تصيغ بها

السيكولوجيا الكلاسيكية هذه المشاكل • وسيكون من السهل بعد ذلك على هذه الأخيرة أن تدعى أن الأمر لا يعدو اضافة شيء من الدقة فى التفاصيل لا يستأهل الحديث عنها فى عبارات طنانة •

وكان البعض الآخر أكثر حذرا فبدأ بالمعارضة • وتجنبوا بكل بساطة الحكم على السيكولوجيا الكلاسيكية كما هى وقالوا فقط انها ليست كل ما يجب أن يكون • وخلقوا شكلا جديدا للسيكولوجيا ناتجا عن تطبيق وجهة النظر التى يؤكدون أنها كانت غريبة على السيكولوجيا من قبل • فكيف تعتقد السيكولوجيا القديمة اذا أنها هزمت ؟ على العكس أنها تستطيع أن تعلن فى فخر منجزا أو أكثر من منجزاتها التى عجز النقد عن النيل منه وذلك لأن النقاد يؤثرون التغاضى على الهجوم •

وعلى كل يستطيع « أنصار المهادنة » أن يثبتوا بسهولة أنه لا توجد موانع أو فواصل بين سيكولوجيا الأمس وسيكولوجيا اليوم طالما أن أحدا لم يحدد بوضوح المبدأ الذى يسمح له أن يمارس التسامح الذى يبديه فى الواقع تجاه السيكولوجيا « العلمية » ومما يلفت النظر فى هذا الأمر اتجاه « سيكولوجى الوسط » اذ لما كانوا مرتبطين بالسيكولوجيا الكلاسيكية بحكم تكوينهم المهنى ، وتجذبهم فى نفس الوقت المحاولات الجديدة ، فانهم يرغبون فى الجمع بين ماهو صحيح فى الحركتين •

ان من العجيب حقا فى الأمر انهم يعتقدون أن بوسعهم السير فعلا على هذا الدرب، فهم يقولون مثلا : ان وجهة نظر البناء ضرورية ، ولكن لا يمكن الاستغناء عن دراسة العناصر • ان السلوكية اكتشاف عظيم ولكن دلالة السلوك لا يمكن فهمها الا بالاستبطان • ان السيكولوجيا الشاملة مهمة جدا ولكننا ندين بالكثير الى تجارب السيكولوجيا العلمية ••• الخ •

ومن الواضح انهم هنا يتلاعبون بالألفاظ ، فيقولون مثلا أنه يجب أن نأخذ مايتفق والوقائع فى كل من السلوكية وسيكولوجية الخبرات المعاشهErlebnispsychologie ولكن أية وقائع ؟ أهى الوقائع السيكولوجية كما تعرفها السلوكية أم كما تعرفها السيكولوجيا الاستبطانية ؟ ولما كانت تعريفات الاثنين متناقضة ، فما أن نقف فى صف واحدة منهما حتى تسقط الأخرى تماما ، ويستحيل الجمع فى نفس الوقت بين « ما يتفق والوقائع » فى الاثنين ٠ وحيث أن الأمر فى البحوث الوضعية لا يجعل من السخف شيئا قاتلا فانا نجدهم يأخذون بالتعريفين معا أو على الأصح يأخذون بواحد منهما مرة وبالآخر مرة أخرى حسب الظروف ٠ وهكذا يعترفون بقيمة ظاهرة من وجهة نظر تستبعدها بعد ذلك وبجهة النظر التى بمقتضاها سيعترفون بقيمة ظاهرة أخرى ، وهذا هو ما يسمونه « اعطاء النواحى الايجابية فى كل اتجاه حقها » ٠

وفى الواقع لا يوجد مبدأ عقلى واحد يمكن أن يسمح بالأسلوب الذى يريد به سيكولوجيو « الوسط » أن يستبقوا للسيكولوجيا الجديدة هذا الوجه أو ذاك من السيكولوجيا الكلاسيكية ، بل يبدو فضلا عن ذلك أنهم يصدرون فى أعمالهم عن الحدس ويحتفظون بما له وقع خاص عليهم ٠ وبالنسبة لهذه النتائج التى قد تكون صحيحة تبرز مرة ثانية وجهة النظر التى أدت اليها ، وهكذا لا تجد السيكولوجيا الكلاسيكية سببا واحدا يجعلها تعتقد بالهزيمة من جانب هذه السيكولوجيا التى تعتمد على نفس مصادرها ٠٠

ولا يوجد حتى الآن سوى اتجاه واحد تبنى موقفا نقديا واضحا تماما وقدم صيغة محددة فى ادانته للسيكولوجيا السابقة عليه وفى نفس الوقت محكا واضحا يحكم بمقتضاه على مايقبله أو يرفضه ٠ هذا الاتجاه هو السلوكية بالمعنى الدقيق للكلمة ٠ فللمرة الأولى لا يتوقف رفض نتائج ما أو نظرية ما على مصادفات التقديرات

الفردية • فقد رفضت كل مايتضمن بأية طريقة فرض « الحيـــاة الداخلية » •

وبهذه الطريقة استبعدت فقط وجهة نظر الواقعية (*) ، فرغم وضوح المحك فان الدقة تنقصه • ذلك أنه قد تكون هناك ـ الى جانب الواقعية ـ عدد من المسلماتpostulatsالتى يجب نقدها مثل المسلمة الكلاسيكية القائلة بأن « الظاهرة النفســـية يجب أن تكون معطى حسيا » • ومن هذه النـــاحية لم يفعل السلوكيون شـــيئا سوى المعارضة وحسب لأنصار الحياة الداخلية دون أن يخضعوا المسلمة نفسها للنقـــد • ولما لم يتم أى « تأليف » synthèse فان التضارب لا يمكن أن يهدأ وظل هناك خط مشترك بين السلوكيين واللاسلوكيين مما جعل السلوكيين يقنعون غالبا بالنقل الحرفى البسيط •

هذا هو حال الفرض الأساسى ، الذى بنفيه لواقعية الحيـاة الداخلية ، يميز السلوكية كلهـــا ، الفسيولوجية منهـــا وغير الفســـيولوجية ، بمعنى أنه عن طريق تفســـير معين « للمنبه ـ الاستجابة » نصـــل الى تعـــريف حقيقى للظاهرة النفسية • ومن الواضح أن هذا ليس ألا مسايرة وخضوعا لوجهة النظر البيولوجية • ولما كانت هذه النظرة غير غريبة على سيكولوجيا الأمس ، فانها لا ترى فى السلوكية بالمعنى الدقيق للكلمة الا استخداما سيئا لمبدأ طيب ، وبوسعها أن تطالب بالعودة الى استخدام « سليم » ، أى استخدام لا يستبعد الحياة الداخلية •

ونستطيع أن نفهم الآن لماذا يجعلنا النقاد لا نحس الا قليلا بأنه لا توجد فى السيكولوجيا أمور محسوسة • فهى حينا ذات نظرة

(*) الواقعية Réalisme يبدو أن المؤلف استخدم هذا المصطلح فى غير معناه التقليدى ويبدو أنه يقصد واقعية الحياة الداخلية كما يتضح من السياق فى السطور التالية (المراجع)

أحادية الجانب ، وحينا آخـــر تعوزها كافة المبـــادىء الواضـحة المتماسكة ، بحيث تفلت بعض جـــوانب السيكولوجيا التى ينبغى استبعادها ، وبحيث يوجد دائما فى الاتجاهات الحديثة ثغـرات تسمح لسيكولوجيا الأمس بالتغلغل فى سيكولوجيا اليوم . وهذا هو السبب فى أننا نجـــد دائما فى كل هذه الاتجـاهات الجديثة ، وتحت مختلف الثياب ، النظام القديم لظواهر الروح .

ومن الجائز أن أساليب ومسلمات السيكولوجيا الكلاسيكية غير مستقلة بعضها عن بعض ، ومن الجائز على وجـه الخصوص أن الواقعية التى هى أساس النظام الكلاسيكى لظواهر الروح مرتبطة ارتباطا وثيقا بغيرها من الأساليب التى تقوم الاتجاهات الجديدة على نفيها . وربما كانت واقعية « ظواهر الروح » لا تستقيم مع وجهة نظر الدلالات . الا أنه من السبل اثبات أن السيكولوجيا التى تريد تطبيق وجهة نظر الدلالات مع احتفاظها بالواقعية ، والتجديد الذى تريد ادخاله ليس تجديدا ولا يتعارض مع السيكولوجيا الكلاسيكية . ونستطيع عندئذ أن نثبت أنه رغم الوثبة فمازلنا فى مكاننا .

وبتعبير آخر يجب أن نلتمس العذر لهؤلاء الذين لا يريدون الاعتراف بوجود هوة لا يمكن عبورهـــا بين السيكولوجيا الحديثة وسيكولوجيا الأجيال الســـابقة . وفى الواقع فان وجود القاعدة الأساسية للسيكولوجيا الكلاسيكية أعنى واقعية ظواهر الروح وكل مايتعلق بهـــا داخل السيكولوجيا الحـــديثة يسمح للسيكولوجيا الكلاسيكية بالتعرف على نفسها فى الحركة الجديدة ولا يكون من حقنا نظرا لوجود هذه الرابطة الوثيقة أن نتكلم عن هوة بين هذين الضربين من السيكولوجيا .

غير أن « أنصار المهـــادنة » يخطئون أكثر مايخطئون عندما يؤكدون أنه ليست هناك صـــلة منقطعة بين ســـيكولوجيا الأمس وسيكولوجيا اليوم ، لأنه ليس هناك ما يوجب ذلك ، وأنه لا محل لمعارضة السيكولوجيا التى حظيت زمنا طويلا باحترام التعليـــم الرسمى بسيكولوجيا أخرى مختلفة عنها تماما ٠

الا أنه حدث مرتين أن أحس علماء النفس أن فى سيكولوجيا جيلهم شيئا يجب استبعاده وحاولوا « التصفية » مرتين ٠ فحاولوا معارضة مانسميه عمـوما « بالسيكولوجيا » بواسطة السيكولوجيا الجديدة ، أى التى صفت ما كان ينبغى تصفيته ٠ ولكن هذه التصفية الأولى لم تكن كافية ٠ وهـــذا هو بالضبط كل دلالة الحـركة المعاصرة ٠ فالمدافعون عن الأدلة الكلاسيكية يثبتون دون صعوبة أن السيكولوجيا الجديدة لم تأت بأى تغيير أســـاسى فى أى مســـألة جوهرية ٠ وهم بذلك يقيمون البرهان فى الواقع على أن التصفية الثانية هى كالأولى غير كافية ٠

ونجد أنفسنا أمام تفسيرين محتملين ٠ فيمكن القول أن الحركة الجديدة لم تنجح فى حفر هوة بين سيكولوجيا الأمس وسيكولوجيا اليوم لأنه لا محل لهذه الهوة من حيث أن الحركة الجديدة لم تفعل شيئا سوى تقديم بعض المطالب التى تســتطيع سيكولوجيا الجيل الماضى أن تفى بها تمامـــا ٠ ويمكننا القول على العكس أن عجز السيكولوجيا الجديدة عن حفر هذه الهوة لا يعنى كفاية السيكولوجيا القديمة فى مواجهـــة المتطلبات الجديدة بل يعنى فى الحقيقة عدم كفاية المحاولات المعاصرة ٠

ونحن فى صف التفسير الأخير ٠ فان الاحساس بعدم كفاية السيكولوجيا القديمة يكاد يكون عاما ٠ ولا تبدو لنا السيكولوجيا

القديمة مرضية لأن المدافعين عنها نجحوا في اثبات أنأ حدا لم يدخل عليها أى تغييرات تذكر • وعلى أى حال فقبل أن نقنع بالمسلمة التى تتضمن أن كل محاولة لاصـــلاح السيكولوجيا واقامة سيكولوجيا جديدة فى مواجهة السيكولوجيا الحالية ـ لن يتاح لها الا أحداث بعض التصويبات الطفيفة لأنه لايوجد فى سيكولوجيا الأمس ما يقتضى تصفية أساسية ـ نقول قبل أن نقنع بهذه المسلمة ينبغى قبل ذلك أن نتحقق منها بمحاولة جذرية حقا • ولقد خرجنا من فحصنا السريع السابق لعمليات النقد السيكولوجى بأن كافة المحاولات كانت جزئية ومفتتة • وهكذا تكون الحجة الكبرى « لأنصار المهـــادنة » مجرد تحصيل حاصل • ذلك أن هذه الحجة لا تعدو القول بأن الاصلاحات الجزئية هى اصلاحات جزئية •

والنتيجة الحقيقية التى نستخلصـــها من الوضع الذى سبق شرحه هى أن الحركة النقدية الثانية لم تنجح هى الأخرى فى تصفية ماكان يتعين عليها تصفيته •

- ٤ -

ويمكننا اذن أن نصيغ أزمة السيكولوجيا بالطريقة الآتية :

يحس الجميع منذ حوالى خمسين عاما تقريبا أنه قد آن الأوان لكى ينتقل علم النفس من المرحلة قبل ـ العلمية الى المرحلة العلمية ، وأنه يوجد فى السيكولوجيا « شىء ما » يحـــول دون هذا الانتقال ويتعين ازالته • ولكن أحدا لم يستطع أن يبين بدقة الطبيعة الحقيقية لما يجب ازالته ، ويقول لنا كيف يمكن معرفة ما اذا كانت فكرة ما أو نتيجة ما فى السيكولوجيا علمية أم قبل ـ علمية • وفضلا عن ذلك فانه فى كل مرة حدثت محاولة لصـــياغة تعريفات أساسية

يتكشف لنا بعد أجل قصير جدا أنها قاصرة قصورا • وتبين دائما أن الأساس الذى يجب تصفيته ظل على ماهو عليه ولم نبلغ هدفنا نحو « الممـــر العظيم » (*) وهذا هو السبب فى أن السيكولوجيا تعانى من الاسراف فى النقد • فما أن بدأت مرحلة النقد لم يكن من الميسور ان تبلغ غايتها مادام النقد غير فعال • ولا يمكن تفسير عدم فعالية النقد بسبب نواقص فردية ، بل انها على العكس تكشف لنا أن مسألة أساسية قد نجحت فى الافلات من كل فحص •

ويجب أن نلاحظ أن الفكرة الأســـاسية التى حــركت نقـاد السيكولوجيا حتى اليوم هى أن ذلك الجزء من الفلسفة الذى حظى بشرف تدريسه رسميا تحت اسم السيكولوجيا أو ميتافيزيقا الروح هو الشكل قبل العلمى للسيكولوجيا الوضعية • فلا بد أن تكون هناك علاقة استمرار بين السيكولوجيا قبل العلمية والسيكولوجيا الوضعية بالرغم من البنوة التى أحدثها اختلاف المناهج واتجاه البحوث والنتائج • ذلك الاستمرار الذى يوجد بين مرحلتين من تطور بعينه• وهذه هى الفكرة الرئيسية لدى فوندت ولدى غالبية النقاد المحدثين• وفيما يتعلق بهؤلاء فانه من الغريب أن نلاحظ أن هذه الحركة التى ترفع شعارات « البناء » ، « والوحدة » ، و « الكلية » تطبق وجهات النظر هذه على كل شىء سوى اصلاح السيكولوجيا نفسها • والاتجاه السائد فى المحاولات الجديدة يتكون فى الحقيقة من انتزاع مفهوم السيكولوجيا الجديدة من السيكولوجيا القديمة نفسها • فبوضع رقعة هنا وأخرى هناك فى السيكولوجيا الكلاسيكية ، توهموا أنهم ينجزون بذلك اصلاحا جذريا •

الا أن عدم فعـــالية النقـد قد يكشف بالذات عن خطأ هذه المسلمة وأن الاصلاح المطلوب يتضمن تضحية أكبر مما قدر أكثر النقاد تقدما •

(*) المقصود : الانتقال الى سيكولوجيا جديدة حقا • (المراجع)

والواقع أنه من الممكن أن يكون الاصلاح هو قطع كافة الصلات بالسيكولوجيا التى وجدت حتى وقتنا هذا • ومن يدرى ؟ اذا ماكان من الممكن أن تقوم سيكولوجيا علمية فمن الجائز أنه لن يكون بينها وبين ما نطلق عليه سيكولوجيـــا حتى تلك الصـلة الموجودة بين الفيزياء الحديثة وفيزياء أرسطو •

ولكى نوضـــح الموقف الحـــالى يجب أن نعـــود الى جذور السيكولوجيا لنرى ما اذا كانت توجد حقـا مجموعة من الظواهر الحقيقية التى تبرر قيام علم جديد ضمن علوم الانسان • غير أنه ينبغى لذلك أن نسقط من حســـابنا ذلك المنظور الخـاص بصدد الانسان الذى يقدمه لنا البناء المركزى للسيكولوجيا (الحالية) •

واننا نتخذ فى الوقت نفسه احتياطا آخر ، فنحن لا نعتقد أننا مضطرون اطلاقا للبحث عن صيغة تلائم فى نفس الوقت سيكولوجيا الانسان والحيوان ، حتى ولو أدى الأمر الى الوصول الى مفهوم ينطبق على الانســان فقط ويستبعد الحيـــوان • لأننا اذا بحثنا عن صيغة سيكولوجية يمكن أن تنطبق فى نفس الوقت على الانسان والحيوان فيجب أن تكون هناك أرض مشتركة بينهما مما سيدفعنا الى وجهة النظر البيولوجية ، وهى نظرة أسىء استخدامها فى الســـيكولوجيا الكلاسيكية •

ويمكن أن نقول أيضا أننا نبحث كما بحث الكثيرون غيرنا من قبل المعطيات المباشرة التى يجب أن تنطلق منها السيكولوجيا • ولكن ما تعنيه المعطيات المباشرة لدى الكتاب الذين تشير اليهم يتضمن كل ماسبق من مهام السيكولوجيا وطريقـــة وضع خططها وتحديد مشاكلها • فما هى تلك المعطيات المباشرة كتلك التى يقـــول بها برجسون والتى تتضمن القيام بمهام استغرقت ألفين من السنين من العمل الفكرى ؟

ونحن لا نبحث على أى حال عن المعطيات المباشرة ، بل نحن نحاول معــــرفة ما اذا كانت هنـــاك ظواهر حقيقية تبرر قيـــام السيكولوجيا ، ولا يهمنا ما اذا كانت تعتبر مباشرة أو غير مباشرة . ونحن لا نريد تناول صفاتها « المباشرة » الا بقدر ارتباطها بمهام السيكولوجيا .

فاذا ما اتخذنا وجهة النظر هذه ، تبين لنا أنه توجد «الى جانب» ظواهر التنفس والهضم وافراز الغــــدد ظواهر أخرى مثل الزواج والجرائم وممارسة الحرف والعمل بالمعنى الصناعى للكلمة .. الخ ، ويتبين لنا كذلك أنه يوجد بشكل عام الى جانب مخطط الطبيعة مخطط آخر انسانى بمعنى الكلمة . وكلمة « الى جانب » ليست دقيقة تماما لأننا انما نحيا أولا وفق المخطط الانسانى ويجب أن نقوم بمجهود تجريدى خاص لنخلص الطبيعـــــة فى شكلها النقى الموضوعى من ثيابها الانسانية .

وبنفس الطريقة « فالى جانب » الحياة البيولوجية توجد حياة انسانية بمعنى الكلمة ، وهذه الأخيرة هى مانقصدها حين نقول انه الحياة صعبة على بعض الناس سهلة على البعض الآخر . وكلمة « الى جانب » هنا غير دقيقة مرة أخرى لأن تجربتنا اليومية المباشرة تقدم لنا الحياة فى مظهرها الانسانى . فنحن محاطون بأشخاص وليس بتراكيب فيزيقية كيميائية . ولا أستطيع تصور أصدقائى مثلا لوحات تشريح الا بمجهود تجريدى كبير . هذه الحياة الانسانية تكون دراما (*) (وقد اخترنا هذا اللفظ لوصفها لأنه مناسب ولا نستبقى منه سوى مدلوله بوصفه : مشهدا) .

(*) يقول بوليتزير فى كتابه « نقد اسس علم النفس » ١٩٢٨ (صـــــفحة ٢٣ هامش ١) وصفحة ١١ هامش ١ فى طبعة ١٩٦٧) : يجب ان يكون مفهوما فهما قاطعا أننا نقصد بكلمة دراما ظاهرة ، اننا نجرد هذه الكلمة من رنينهـــا الرومانتيكى ونرجو من القارىء ان يتعود على هذا الفهم البسيـط للكلمة وان ينس دلالتها « المأسوية » .

فمما لا جدال فيه أن خبراتنا اليومية تضعنا أولا وقبل كل شيء موضـــع الدراما • وما الأحداث التى تحدث لنـا الا أحداث درامية • ونحن نلعب هذا « الدور » أو ذاك ••• الخ • وان النظرة التى نرى بها أنفسنا نظرة درامية • فنحن نعلم أننا قمنا بدور أو شاهدنا هذا أو ذاك من التصرفات أو المشاهد ، ونحن نتذكر قيامنا برحلة أو رؤيتنا لأناس يتعاركون فى الشارع أو أننا ألقينا خطابا • ومقاصدنا أيضا درامية فنحن نريد الزواج أو الذهاب الى السينما •

ونحن نفكر فى ذواتنا بشكل درامى •

واننا نقيم عـــلاقاتنا مع أشباهنا فى اطار درامى • فالمقاول يستخدم عاملا ونحن نلعب شوطا من التنس مع أصدقائنا •• الخ • وفهمنا لبعضنا البعض درامى كذلك • فها أنا مدعو لتناول الشاى • وأنا قد أقبـــل وقد أرفض • وقد يعرض أحـدهم رأيه السياسى • فأعارضه بشدة • ولكننا نتناقش ونحيا فى المعانى التى تمسنا بشكل أو بآخر ولكننا لا نخرج من اطار الدراما فى أى لحظة •

ونحن نعرف بعضنا البعض فى اطار درامى • والجـــانب الدرامى هو وحده الذى يهمنا فى الحياة اليومية • فكل مانبحث عن معرفته هو كيف يتصرف فلان فى موقف بعينه وما الذى ينبغى عمله حتى يتصرف على نحو معين بدلا من نحو آخر وما الذى يحكيه أحدنا للآخر ؟ ان السيد فلان الشاب ، حسن الطلعة ، الذكى ، الثرى قد تزوج فلانة العجوز القبيحة الغبيـــة ، الفقيرة •• الخ • هذا هو مانسعى الى فهمه •

- ٦ -

ومع أن الدراما تكون فى مواجهة الطبيعة مجالا أصيلا تماما ، فان هذه الأصالة ليست جوهـــرا substance يجب أن

تستحدث له كيانا ميتافيزيقيا لم يسبق وجوده • فالزواج يحدث في المكان كالهضم والتنفس سواء بسواء وكذلك الجرائم والحماقات والحياة الدرامية بشكل عام • وبالتالى فان الخبرة الدرامية ذاتهـا لا تتضمن ادراكا فريدا فى نوعه sui generis غير الادراك العادى •

ومما لا جدال فيه أنه توجد في الدراما مادة لعلم أصيل مبتكر • فعلوم الطبيعة التي تهتم بالانسان انما تدرس في الحقيقة ما يتبقى عندما نجرد الانسان من صفته الدرامية • الا أن ارتباط كافة الأحداث الانسانية بمعنى الكلمة ، ومراحل حياتنا ، وأهدافنا، ومجموع الأشياء الخاصة جدا التي تحدث لنا فيما بين الميلاد والموت تكون مجالا محددا تماما من السهل التعرف عليه ولا يختلط بوظائف الأعضاء • وهو قابل للدراسة لأنه لا يوجد سبب واحد يجعلنا نفترض أن هذه الحقيقة تفلت بأعجوبة من كل حتمية • فنحن فى حاجة لمعرفة لماذا اقترف هذا الانسان تلك الجريمة في تلك اللحظة ، وما الذى جعل السيد فلان الشاب ، الوسيم ، الذكى ، الثرى يتزوج فلانة العجوز ، القبيحة المنظر ، الغبية ، الفقيرة ولماذا تبدو الأحداث وكأنها تضطهد فلانا بينما يفلت غيره من مآزق أشد صعوبة ••الخ•

ومن الواضح أيضا أن العلوم المسماة « أخلاقية » (علوم الانسان) كالتاريخ والاجتماع أو الاقتصاد السياسى غير قادرة على الاجابة **وحدها** عن هذه الأسئلة • فاذا كان التاريخ وعلم الاجتماع علوما درامية ، فانها لا تتناول الا الاطار العام الذى تجرى داخله دراما كل جيل ، والمواضيع العامة التي تكون الأحداث الدرامية أشكالها الخاصة • ولكن الأحداث الدرامية لها دائما « هنا والآن» (*) اشكاليا الخاصة التي لا يمكن للتاريخ أو الاجتماع أن يفسرها •

(*) hic et nunc اصطلاح لاتينى معناه الحرفي : هنا والآن ويقصد به الخصائص المكانية والزمنية وما اليها لموقف بعينة أو أحداث بعينها» (المراجع)

فالسيد س لم يكن ليتزوج الآنسة ع اذا لم يكن الزواج فى بيئتنا نظاما اجتماعيا • الا أن تقرير هذه الحقيقة لا يحدد الدراما فى نوعيتها الفردية • كذلك يبين لنا الاقتصاد السياسى الظروف الاقتصادية للجريمة ولماذا يتحتم أن توجد الجرائم فى المجتمعات البورجوازية ولكنه لا يبين لنا لماذا يرتكب شخص بعينه جريمة بعينها •

فعلوم الطبيعة لا تدرس الا « الميزانسين » المادى للدراما ، والعلوم « الأخلاقية » لا تهتم الا بالاطار العام والدوافع الأكثر عمومية ، فيوجد اذن مكان لعلم بعينه يدرس الدراما فى واقعها وخصوصيتها المحددة •

ويبدو فضلا عن ذلك أن هذا العلم لن يخترع أو على الأقل لن يخترع بأكمله ، لأننا نجد تحققا أوليا له فى تاريخ طويل من التقاليد المعروفة لنا جيدا • ففى الملاحظات التى نستطيع جمعها من خبراتنا الدرامية ، وفى التواتر الذى نلحظه فيها يقيم كل منا لنفسه فى الواقع نوعا من « الحكمة » تختلف درجة عمقها وصحتها وهى ما نسميها « بالمعرفة العملية بالانسان » (*) •
praktiche menschenkenntnis
وهى تتعلق بالدراما فقط على وجه الخصوص • وهذه « الحكمة » ليست مجرد مجموعة من المعارف خاصة بحقيقة أخرى غير الطبيعة ، توصلنا اليها بادراك يختلف عن الادراك العادى ، وليا ميزة النفاذ الى طبيعة ثانية • انها ليست الا تعميقا معينا لخبراتنا الدرامية المباشرة • فالتاجر يضع على سلعته « السعر ٩٥ » والرجل المجرب يقول « اتبع المرأة تهرب منك واهرب من المرأة تتبعك » هذا الأسلوب وهذه التقريرات ناتجة عن استقراء لا يخرج عن نطاق الدراما فى

* اصطلاح المانى ذائع في الفرنسية والانجليزية يقصد به : القدرة التلقائية لفهم « نفسية » الناس في الحياة العملية .

أى لحظة • والأمر كذلك فى الأدب والمسرح • فليس الأمر فى الرواية ولا فى المسرح سردا لأحداث تدور حول عمليات فريدة فى نوعها يكون الممثلون فيها شخصيات غير مألوفة فى الخبرة الانسانية ، بل على العكس نجدها تقتطع من الخبرة العامة أجزاء لها دلالة خاصة وتقدم للنظارة أشخاصا تعيش وتضطرب فى الحياة •

الا أن هذه التقاليد الدرامية ليست بعد علما ، فالمعرفة العملية بالانسان فيها كل نقائص التجريبية « البدائية » ، فعملياتها غير منظمة وتنقصها الدقة وملیئة بالأحكام المسبقة الأخلاقية والاجتماعية • ويبدو زيادة على ذلك أنها لم تحرز أى تقدم منذ قرون مما دعى الى القول بأن الانسان ظل كما هو أما بالنسبة للأدب والمسرح فقد عاشا على نفس هذه الأسس تقريبا أو اكتفيا بتتبع تطور الانسان كما تحدده الظروف الاجتماعية والاقتصادية مقدمين رؤى لا تحليلات ، أى فنا لا علما •

ويبدو أن المشكلة تتلخص فى انتقال تقاليد المعرفة التجريبية بالانسان من مرحلة « التجريبية » (*) empirisme الى مرحلة العلم الوضعى •

وهنا نقابل السيكولوجيا كما جاءت تاريخيا • فهى تدعى أنها حاولت انجاز هذا الانتقال• فالسيكولوجيا كما يؤكد السيكولوجيون هى التى رفعت المعرفة العملية بالانسان
praktische menschenkenntnis
الى مستوى العلم لأنها هى التى نظمت بشكل أعمق خبراتنا اليومية المتعلقة بالانسان ، مثلما نظمت الفيزياء تعميقا منهجيا لخبراتنا اليومية بالطبيعة •

---

* المقصود بالتجريبية هنا المعرفة المباشرة الغفل قبل ـ العلمية

الا أننا دهشنا عندما تبين لنـا أن السيكولوجيا تستوحى بالرغم من تأكيداتها مفاهيم مختلفة تماما عن تلك التى جعلتنا نرى ضرورة قيام علم جديد بين علوم الانسان ٠

فالخبرات التى تحـدثنا السيكولوجيا (الكلاسيكية) عنها مختلفة تمـاما عن الخبرة الدرامية ٠ فخبراتنا الدرامية هى الحياة بالمعنى الانسـانى للكلمة وشخصياتها رجال يضطربون فى الحياة بشكل أو بآخر ٠ وحتى مسرح أحداثها الجزئية يتضمن الانسان فى شـموله ٠ أما الخبرات التى تقدمها لنا السيكولوجيا فتتكون من عمليات ليس لها شكل أفعالنا اليومية ٠ وهى فى الواقع تقول لنا ان « التصورات ترتبـط ببعضها البعض » « والميـول تستيقظ » « والغرائز تستثار » ، وبدلا من الاحداث الانسانية نجـد عمليات يؤكدون لنا أنها مقتطعة من **واقع فريد** هو : **الواقع الروحى** ، فبدلا من الدراما الانسـانية نجد دراما أخرى تؤدى أدوارها شخصيات مجهولة لا تشبهنا فى شىء : تصورات ، وصور ، وغرائز ٠

ومن المستحيل أن نتعرف على أنفسنا فيما ترويه السيكولوجيا لأنها ليست معطيات عن حوادث انسانية ٠ « استيقظت مبكرا فى الصباح للقيام بنزهة فى الغابة ، وقابلت هناك الحارس الريفى الذى قال لى « لقد تغيرت غابة «فنسين» عما كانت عليه منذ ثلاث سنوات، وعما قريب سيصبح شأنها شأن قلب باريس » ٠ نستطيع جميعا أن نتخيل وأن نتقمص شخصيات هذه الحكاية ٠ ولكن ما تقدمه لنا السيكولوجيا ليس سردا عن أشخاص ولكنه سرد عن أشياء « وجد أحد التصورات نفسه بالامس ملاصقا لتصور آخر وعاد اليوم الى الشـعور واصطحب الثانى معه » لا يستطيع أحد أن يتمثل المنظر الذى يحدث هنا فعبارات هذا السرد ليست لها أى دلالة انسانيـة ٠

وعلى العكس فان البناء المنطقى للخطوات التى أدت الى المفهومات والعلاقات المتضمنة فى هذا السرد الأخير يمكن أن تنطبق هى نفسها على أى ظاهرة أخرى من ظواهر الطبيعة : الذرات أو الحجارة أو الاخشاب • وهذا هو ما أدركه «هيوم» عندما قال ان قانون الارتباط بالنسبة للظواهر العقلية مثله مثل قانون الجاذبية العام بالنسبة لظواهر الطبيعة •

وهكذا نجد ، بعبارة أخرى ، أن السيكولوجيا قد أقامت بجانب الطبيعة ، طبيعة أخرى موازية لها ، تتكون هى أيضا من ظواهر وعمليات فريدة فى نوعها Sui generis • ففى مقابل دراسة الواقع الفيزيقى بما هو واقع توجد دراسة الواقع (السيكولوجى) المتفرد بما هو كذلك ، وفى مقابل ظواهر الطبيعة توجد ظواهر الروح ، وفى مقابل فيزيقا الظواهر الطبيعية توجد « فيزيقا » التصورات • وقد بدأت السيكولوجيا الحديثة شأنها شأن الفيزياء الحديثة بالميكانزم لتتجه بعد ذلك الى الدينامية • وهكذا نجد الى جانب الفيزياء فيزياء أخرى •

وتستبدل هذه الفيزياء الثانية بمجموع البشر الذين يقوم كل منهم بمفرده بدوره فى الدراما ، تستبدل بهم عالم العمليات الروحية الفريد ، تماما كما استبدلت الفيزياء العالم الفريد للمادة بمجموع الآلهة والجنيات وآلية الحقول • وبدلا من النسق الذى تتوزع به الدراما على مجموع الشخصيات الفردية والاحداث الدرامية تناولت السيكولوجيا المظاهر الكبرى للطبيعة الروحية : الادراك الحسى ، والذاكرة ، والارادة ، والذكاء ، وكرست نفسها لدراستها كما كرست الفيزياء نفسها لدراسة المظاهر الكبرى للطبيعة : الحركة ، الحرارة ، الضوء والكهرباء • وبالرغم من اعتراف السيكولوجيا بالشخصية لكل فرد ، فان ذلك لا يغير من تلك الطبيعة الثانية تماما كما لا تغير الاشكال المعينة للاشياء المادية من قوانين الميكانيكا •

فمثل الشخصيات الفردية بالنســـبة للطبيعة الروحية مثل الساعة المصنوعة من الذهب بالنسبة للذهب أو الماسة بالنسبة للماس والمـادة الكيميائية المتفردة بالنسبة لحركة الذرات ٠

- ٨ -

ومهما كان رأينا في شرعية التشويه الذى أنزله علم النفس بالدراما فلا شـــك أن هذا التشويه يتضمن اســـتخدام التقاليد الاحيائية animisme واذا كان « ڤوندت » قد استبعد الروح (من السيكولوجيا) فان ذلك لم يكن له الا قيمة ضئيلة لأنه لم يستبعد **ظواهر الروح** ٠ وهكذا نبعت الظواهرية* phénoménisme باستمرار من واقعية ظواهر الروح ٠ وهكذا أدت بنـا أسس سـيكولوجيا الظواهر ، كما أدت بنا قبل ذلك ميتـافيزيقا الروح ، الى التقليد الاحيائية التي تنتسب اليها كل من الروح والحياة الداخلية(الروحية)

ولا فائدة هنا على الاطلاق من اثارة مشكلة أصل الاحيائية ٠ والشيء الوحيد الذى يهمنا هو أن المعتقدات الاحيائية لا علاقة لها بمعرفة الانسان كما هو في واقعه الملموس تماما كما أن لا علاقة لها بالطبيعة ٠ فما تنتمي اليه هذه المعتقدات شيء مختلف تماما ٠ ذلك أن الوظائف التي يقـوم بهـا مفهوم الروح هي في جوهرها وظائف دينية ، والمشاكل التي تهتم بها هذه المعتقدات هي ما تتعلق بالحياة في عمومها والموت والبداية والمصير ٠

ومن ناحية أخرى فان الخبرة الدرامية التي سبق أن وضحناها لا تستدعي أي معتقد احيائي ، وفضلا عن ذلك فان معرفة الانسان لا تحتـــاج إطلاقا معرفة نظـام ظواهر الروح ٠ وقـــد لاحظ السيكولوجيون أنفسهم ذلك ٠

* لايقصد بوليتزير بهذه الكلمة مذهب هوسرل واتباعه وانما يقصد بها المعنى اللغوى العادى للكلمة أي حدوث الظواهر ٠ (المراجع)

ولكن يوجد ما هو أكثر من ذلك • فان البحوث الخصبة حقا في السيكولوجيا الحالية هي بالذات المستقلة عن التقاليد الرئيسية للسيكولوجيا الكلاسيكية ، مثل علم النفس الصناعى • فالبحث فى كيف تؤثر الاضاءة على العمل لا يتضمن أى فرض خاص بالحياة الداخلية للعامل • وكذلك تقرير أن اتخاذ الادوات هذا الشكل أو ذاك يزيد أو يقلل بنسبة معينة من انتاجية العمل •

ومن ناحية أخرى فان (ستاندال) أو (دوستويفسكى) لم يكونا سيكولوجيين بفضل أبحاثهم فى ظواهر الروح • بل على العكس يمكننا القول أن الروايات والمسرحيات الرديئة هى التى تتأثر بالمذات بالنظام الذى ذكرناه (ظواهر الروح) • وعلى أى حال فالمرء لايتخطى الدلالات الانسانية عند قراءة رواية أو مشاهدة مسرحية • ففهم الدلالات الانسانية شىء واصطناع الفروض حول العمليات الداخلية (الروحية) شىء آخر • وشرح المنظر الدرامى بمنظر درامى آخر ، وشرح الكل عن طريق عمليات العالم الروحى يمثلان أسلوبين فى المعالجة مختلفين تماما •

وهكذا فبدلا من أن نجد فى السيكولوجيا ببساطة تنظيما أرقى للمعرفة العملية بالانسان نجد أنفسنا أمام موقفين مختلفين : أحدهما الموقف الدرامى المتمثل فى المعرفة العملية بالانسان ، وفى الادب والمسرح والآخر الموقف الاحيائى • الموقف الاول هو وحده الذى يتعلق بالدراما ، بينما الروح لا الانسان هى مركز الثانى •

وقد التقى هذان التراثان فى لحظة معينة ومن المفيد أن نعرف لماذا تم هذا اللقاء • من الواضح أن التراث الدرامى لم يكن بحاجة الى التراث الاحيائى • وخير دليل على ذلك أنه رغم سيطرة التراث الاحيائى لمدة قرون وضغطه على التراث الدرامى فان هذا الاخير استطاع أن يحافظ على نفسه بدرجة نسبية من النقاء • وقد ظلت المعرفة العملية بالانسان ولا زالت دائما خارج نطاق السيكولوجيا

الرسمية وذلك رغم جهود بعض السيكولوجيين الذين اقلقتهم كفاءتها فاضطروا الى اقامة الصلات بها حتى تبدو السيكولوجيا الرسمية هي التنظيم العلمي للمعرفة العملية بالانسان • أما بالنسبة للرواية والمسرح فان البحث عن المظهر العلمي scientisme على قلة جدواه ـ هو الذي ساق في الآونة الاخيرة رجال الادب نحو السيكولوجيا •

وعلى العكس فان التراث الاحيائي كان يحتاج دائما الى التراث الدرامي • فقد حاولت كافة التقاليد الميتافيزيقية أن تتخطى الشكل الاسطوري البحت الذي ظهرت به أولا ، وحاولت أن تفرض نفسها كتفسيرات فعلية للواقع • كما أن التراث الاحيائي اضطر لكي يعطي نفسه وجها ايجابيا ، أن ينقل معطيات المعرفة العملية بالانسان الى ميدانه ويترجمها في لغة احيائية • وبفضل الرباط بين التراث الاحيائي والدين احتل هذا النقل* مركز الصدارة، وهكذا حل التراث الاحيائي تماما محل الاهتمام الدرامي • وكان هذا يتفق في المقام الاول مع الاتجاه المسيحي للتفكير الغربي الذي ارتبطت به الفلسفة نهائيا • ان الاهتمام بالدراما لا شأن له بمشكلات الخلود والخلاص اللذين كانا محط اهتمام الاحيائيين •

وفي النهاية فان كل هذا النظام الذي انتهى بالانفصال عن الفلسفة تحت اسم السيكولوجيا لم يكن له من عمل الا النقل (الذي سبقت الاشارة اليه) على نحو يزداد انتظاما ودقة ولكنه خاضع دائما للاهتمامات الاحيائية •

وكان من الممكن أن يتمشى انتقال الاهتمام من الدراما الى الاحيائية ، مع السيكولوجيا العلمية ، بأن تؤدي الاحيائية في السيكولوجيا دور الفرض الخصب •

فكل الحيل والفروض العلمية رغم ما يبدو من انها تشوه وقائع الخبرة المباشرة فان سمتها الاساسية انها تسمح بالحصول على

* transposition

معارف جديدة وتقود العلوم بشكل عام من الشكل الميثولوجى الى الواقع • أما الاحيائية فعلى العكس بدا أنها تقود السيكولوجيا فى الطريق المضاد • .

فهى أولا لم تحمل الى المعرفة العملية بالانسان أى معرفة جديدة ، بل ان الاحيائية نفسها صارت تعيش معيشة طفيلية وذلك عن طريق النقل (المشار اليه آنفا) • ان المعرفة **العملية الصحيحة** بالانسان أتت دائما عن طريق الخبرة الدرامية • ولا يمثل التراث الاحيائى فى الحقيقة أى معرفة فعلية **بالانسان** لانها ليست الا نظرية ذات مفهوم واحد ، خطة كبيرة للتفسير لا تستطيع أن تدلنا كيف يمكن الحصول على معارف جديدة وانما تعرف فقط كيف تعطى شكلا معينا للمعارف المستقاة من مصادر أخرى •

والواقع أن السيكولوجيا عاشت خلال قرون على نفس أسس المعرفة الوضعية • فبينما أصبحت الاعمال الفكرية لعملية النقل أكثر دقة ظلت المعرفة العملية بالانسان عند نفس النقطة لان المشكلة ظلت هى معرفة كيف يجب انجاز النقل • وهذا هو السبب فى أنه منذ أرسطو حتى ڤوندت لم نكتشف السيكولوجيا ظاهرة جديدة واحدة • أما بالنسبة لفوندت فما هى الظاهرة الجديدة التى اكتشفها ؟ نحن لا نرى لديه ظاهرة سيكولوجية واحدة لم يرد ذكرها بطريقة أو بأخرى فى التراث اللغوى ، أو معروفة من قبل لفلاسفة العصور الوسطى • أما من يسمونه مصلح السيكولوجيا الحديثة « برجسون » فهل قدم لنا ظاهرة سيكولوجية جديدة تستحق هذا الاسم ؟ على العكس ، من السهل أن نرى ــ اذا ما استبعدنا مسائل النقل ــ أنه سار على نفس أسس المعرفة التى سار عليها سابقوه •

ان هذه الصفة الطفيلية والتى لا تحمل على البحث antiheurisitique للنقل هى التى أضاعت على ڤوندت وغيره من المؤلفين فرصة الانتقال من السيكولوجيا قبل ــ العلمية الى السيكولوجيا العلمية • ذلك أنهم أرادوا اضفاء الشكل العلمى على اطارات وصيغ النقل دون أن يشغلوا

بالهم بأن المعارف الفعلية التى نجدها فى أساس النقل لا زالت قبل علمية لأنها ببساطة جمعت بواسطة العمليات البدائية للمعرفة العملية بالانسان . وهذا هو مثلا حال كل النظريات «العلمية» عن الحلم التى تحاول الوصول الى تفسير فيزيقى كيميائى للحلم بوصفه عاطلا عن المعنى بينما أثبتت الاساليب التقليدية للمعرفة العملية بالانسان بعد صقلها صقلا بسيطا ؛ أثبتت أن للحلم معنى .

وهذا ليس كل ما فى الامر فكما سبق لنا القول يتضمن النقل الاحيائى أن تستبدل بالدراما عالم الروح وظواهرها أى نستبدل بها **طبيعة ثانية** ، وان هدف النقل هو التعبير عن الدراما بعبارات الطبيعة الثانية هذه . الا أنه لا يوجد أى تشابه بين المستوى الانسانى والعالم الروحى . لذلك وجب اختراع اجراءات تسمح بالذهاب والاياب بين الاثنين وتحويل الدراما الى طبيعة (ثانية) .

وجب اذن تحويل الاحداث الدرامية الى عمليات روحية . ولما كان كل قطاع درامي يتضمن بالاضافة الى مشهديته « (الميزانسين) المادية دلالة تعطيه قيمته الدرامية ، فقد انصب اهتمام السيكولوجيا على هذه الدلالات الدرامية لتحويلها الى عمليات روحية .

فهناك مجموعة كاملة من النظريات الاساسية فى السيكولوجيا الكلاسيكية لا هدف لها الا العمل على تحول الدلالات الى عمليات . وهذه هى مثلا حالة قضية التوازى بين اللغة والفكر . فهى تسمح بتحويل قواعد اللغة ـ تبليا a-priori ـ الى سيكولوجيا والامر بالمثل فى « النزعة السيكولوجية » psychologisme فالسيكولوجيا ليست فى الواقع الا ارتدادا الى المنطق من حيث أن السيكولوجيين أقاموا سيكولوجيا الفكر بأن نقلوا ، قبليا ، المنطق الى عمليات روحية ، وسعوا لاضفاء الشرعية على هذه العملية باعتبارهم اياها نوعا من البديهيات axiome . ووقع المناطقة من أنصار « النزعة السيكولوجية » ببساطة ضحايا لزيف السيكولوجيين الذين

* النزعة السيكولوجية هى الميل الى تفسير كل شىء تفسيرا نفسيا .

لم يقرروا أن المنطق انما هو سيكولوجيا الفكر ، الا ليستطيعوا أن يبحثوا عن سيكولوجيا الفكر فى المنطق .

وواقعية (الحيـــاة الروحية) تعنى بدورها خطوة أخرى ، فالدلالة متى فطن اليها اعتبرت كغيرها من الوقائـع ، أى أصبحت « شيئا » . وبذلك تنتزع من نظام العلاقات الدرامية وتوضع تحت سلطان العلاقات الظواهرية phénomenale كتلك التى تستخدم فى علوم الطبيعة .

وهكذا تغير الدراما شخصياتها فبعد أن كان الممثـل الوحيد الممـــكن للخبرات الدراميـة هو الفرد المفرد فان خطوات الواقعية (الروحية) تحول كل منتجات هذه الخطوات الى «ممثلين» . وهكذا بدلا من الحصول على المجموع الدرامى ، نحصل على مجمـــوع آخر لا تستطيع سوى اللغة المقتبسة من الطبيعة الاولى أن تعطى لموضوعه معنى . فلم نعد نبحث مسألة انسان قتل انسانا آخر وانما نبحث أثر تصور معين على تصور آخر ، العلاقات الميكانيكية ، والدينامية، والحيوية . والاقتصادية ... الخ القائمة بين الظواهر النفسية ، وتسلسلها واندماجها : أى نســـتبدل بتاريخ الاشـــخاص تاريخ الاشياء .

وبتعبير آخر فان الواقعية الروحية مضطرة الى الغــاء الدراما بتحطيم المجموعات الدرامية ، وبتقديم الوقائعيات فى حد ذاتها ومن أجل ذاتها . وهذه الخطوة الاخـيرة هى ما نطلق عليه التجريد . فنحن نقول ان السيكولوجيا التى تستبدل بتاريخ الاشخاص تاريخ الاشياء ، والتى تلغى الانسان وتقيم مكانه العمليات ، والتى تهجر المجمـــوع الدرامى للافراد الى المجمـوع اللاشـــخصى للظواهر هى سيكولوجيا مجردة (تتصف بالتجريد) .

والتـــجريد المتضمن فى الواقعية الروحية يتضـــمن بدوره

«الشكلية» formalisme • فبينما ترجع الخبرة الدرامية كل شيء الى المستوى الانساني والى الفرد الذى يمارس الحياة ، فان الدراسة الواقعية الروحية والمجردة لاتستطيع الا دراسة «الظواهر النفسية» • وهى تدرس الظواهر النفسية كما تدرس الظواهر عامة : بطريق التصنيف الى فئات ، من حيث أنه لا يوجد علم الا بالعام • فعوضا عن الاعتبار الدرامى للافراد نجد السيكولوجيا بوصفها علم مفهومات الفئات •

ولقد ركزت السيكولوجيا الكلاسيكية منذ فوندت حتى برجسون كل انتباهها على الفئات الكبرى للظواهر النفسية : الادراك الحسى ، الصور ، الانفعالات ••• الخ •

أما فى مواجهة الحدث الدرامى فلم يكن لدى السيكولوجيين سوى اهتمامات شكلية : ما هو دور الصور فى الحلم ؟ ودور الاحساسات ؟ والعواطف • هذه هى المشكلة النموذجية فى السيكولوجيا الكلاسيكية • فهى تلغى الدلالة الخاصة للظاهرة التى تنشغل بها ولا تحتفظ الا بالشكل : وهذا هو ما نسميه بالشكلية• فنحن نعتبر أن كل سيكولوجيا يسير بحثها وفق مفهومات الفئات التقليدية ، والتى تطرح مشكلاتها بواسطة هذه المفهومات ، سيكولوجيا شكلية •

وبواسطة الواقعية الروحية والتجريد والشكلية حدث النقل من الدراما الى العمليات الروحية • وهذا هو السبب فى أنه من الصعب اقامة سيكولوجيا جديدة حقا على أساس نفى خطوة كالتحليل الى عناصر • اذ أن هذا التحليل لا يتناول الاسس نفسها انما يتناول النتائج •

والواضح الآن أن هذا النقـل لا يمثل بأى حال من الاحوال توفيرا ميتافيزيقيا فنحن بالتأكيد لا نتحول من ترف ميتافيزيقى الى اقتصاد ميتافيزيقى باستخدام النقل السابق الذكر ٠

فنتيجة هذا النقل كله هى اعادة ربط الخبرة الدرامية بتقاليد لا شك أنها ميتافيزيقية ٠ وهكذا تجد دراسة الانسان نفسها وقد تعقدت من جراء المشاكل التى تدور حول الروح ٠ الا انه فى وسعنا أن نكون فى غنى عن ذلك ٠ فها هى الدراما فلم ـ بغية دراسـتنا لها ـ نفتتها الى آلاف القطع ثم نبنى بعد ذلك فسيفساء mosaique (موزايك) مختلفا ؟ ما معنى بعد أن أتبين اننى أكتب بشكل أفضل على الورق الابيض بالقياس الى الاصفر ، أن أقول أن خطى أحسن بالقلم الثقيل عنه بالقلم الخفيف ، وأن بى هذا أو ذاك من الخبرات الداخلية حيث السهولة والصعوبة معاشة على نحو مخالف لأى معاش آخر ؟ ما الذى يستفيده من يريد أن يعرف طريقتى فى العمل من « أن يحيا مرة أخرى فى تعاطف » هذه السهولات أو الصـعوبات الافضل أن نهتم بالعمليات التى تسمح لنا أن نتخطى هذه العموميات فى موضوع العمل ٠ فالنقل يقـودنا مما هو ميتافيزيقى على نحو طفيف الى ما هو ميتافيزيقى على نحو أعظم دون فائدة ٠

والأمر الجوهرى ان هـذه المنـجزات لا تصح فى الاذهان ٠ فالحقائق الوحيـدة هى الطبيعة الفيزيقية من ناحية ، والدراما من ناحية أخرى ٠ وبين هذين الاثنين تريد منجزات السيكولوجيا أن تندس الا انه لا يوجد بينهما مكان لدراما ليست دراما لانها تريد أن تكون طبيعة ، ولا يوجد مكان لطبيعة ليست طبيعة لأنها تريد أن تكون دراما ٠

فالنقل لا يقودنا من ميتافيزيقا طفيفة الى ميتافيزيقا مستفحلة

الا لأنه يريدنا أن ننتقل من الحقيقى الى (الاسطورى) فهو يقودنا فى الحقيقة الى تصور للدراما يلغى الواقع •

- ١٠ -

ونصل فى النهاية الى شكلين من السيكولوجيا • الا ان التعارض بين هذين الشكلين ليس تعارضا بين شكلين يحتملان الصدق ، بل بين شكلين أحدهما صادق والآخر ليس به شىء من الصدق •

والأول هو الدراسة **المباشرة** للدراما والثانى هو الدراسة **غير المباشرة** • الاول يدرس الدراما ذاتها عن طريق العمليات العادية للمعرفة العملية بالانسان ، والآخر يدرس «نقلا» للدراما عن طريق عمليات هى ـ وفقا للهدف الاول الذى يحركها ـ ملائمة لدراسة نتائج هذا النقل • وفى ثناياها تندس بالصدفة عمليات دراسة الدراما ذاتها •

وهذان الشكلان من السيكولوجيا ينصبان على نفس الخبرة • لأنه لا يمكن أن توجد خبرتان تستطيع كل منهما أن تولد شكلا صحيحا من السيكولوجيا • فلا توجد سوى خبرة واحدة تبرر وجود هذا العلم • لا توجد سوى خبرة سيكولوجية واحدة ألا وهى الدراما •

والطريقة الاولى فى الدراسة ناتجة عن دوافع احيائية ، وهى دوافع ميتافيزيقية وليست عملية • فبدلا من الدراما نجد نقلا لها فى رموز احيائية بواسطة مجموعة من الشخوص المجردة والشكلية • وبينما الدراما أقرب لنا بكثير من كل هذه الرمزية للظواهر السيكولوجية ، لأننا نجدها (الدراما) فى خبرتنا اليومية ، فان هذا الشكل الاول للسيكولوجيا يحولنا بلا فائدة الى نظام من العمليات والمسلمات والمفاهيم لا تؤدى بدراسة الدراما الى أى تقدم• ويغرق البحوث السيكولوجية فى عقم البحث التصورى الخالص •

ذلك أن الرمزية العلمية لا تحركها دوافع غريبة على العلم ، وعلى عكس النقل فانها تضبط وتنظم الابحـــاث بأن تجعلها أكثر مطابقة لموضوع البحث ·

فالســـيكولوجيا العلمية لا يمكن الا أن ترجـــع الى الخبرة السيكولوجية الحقيقية وهى الدراما ، وتهجر الخطوات التى بها يتم النقل ·

وعلى العـكس فان كل سيكولوجيا تلجأ الى النقل بطريقة أو بأخرى والتى تستخدم عن وعى أو عن غير وعى ، عن فطنة أو بدونها، اراديا أو لا اراديا ، الخطوات التى سبق أن عددناها، هىسيكولوجيا اسطورية بقدر ما تستخدم من تلك الخطوات · وهذا هو السبب فى أننا نقول ان السيكولوجيا منذ خمســة وعشرين عاما هى أسطورية تماما ، وأن كافة الاتجاهات الجديدة أسطورية جزئيا ·

على أننا لم نحصل بمــا قدمنا الا على معارضة اجمالية (بين الســيكولوجية العلمية حقــا والسيكولوجيا الاسطورية) · ونحن نعرف الآن مم يتــكون الاساس الاسطورى للسيكولوجيا · ولكن تنشأ هنا مشكلة جديدة معقدة ·

فلا يكفى لأى نظام* لكى يصـــبح علمـــا أن نزيل الأسس الاسطورية التى يحتويها · فداخل هذا النظام الذى لم يصبح وضعيا تماما لا يأتى كل الخلل من الاساس الاسطورى اذ توجد مفهومات واشياء مقررة ونظريات ليست مجافية للعلم ولكن قبل علمية فقط· فبعـــد أن أشرنا بطريقة عامة الى مالا يمكن أن يكون علما فى مادة السيكولوجيا ويجب رفضه قطعيا بوصفه اسطوريا يجب أن نعرف الآن بأى علامة يمكن معرفة مايجب الاحتفاظ به ، على أن يتم تحديده وتعميقه ومعنى هذا التحديد والتعميق فى الوقت نفسه · وبعبارة أخرى بعـــد أن وضعنا علم النفس العلمى فى مقـــابل علم النفس

---

* discipline

الاسطورى ، يجب أن نوجد قاعدة تسمح بمقابلته أيضا بعلم النفس قبل العلمى • وهذه المقابلة المزدوجة هى وحدها التى تسمح للنقد باطلاق حكم واضح على سيكولوجيا الماضى •

- ١١ -

من الواضح أن المشكلة التى نواجهها الآن هى (الدقة) فى موضوع السيكولوجيا • ومن الواضح أيضا أنه كما هو الحال فيما يتعلق بما يجب تصفيته فان الاتجـــاهين النقديين (اللذين سبقت الاشارة اليهما) لم يأتيا بأى وضوح فى هذه المشكلة • وكل الفرق بينهما من هذه الناحية أن ممثلى الاتجاه الاول كانوا يريدون ادخال الضبط العلمى المثالى لعلوم الطبيعة الى السيكولوجيا دون أى تبصر، أما الاتجاه الثانى فكان يريد أن يرد الاعتبار « لخصوصية » الظاهرة النفسية • ولكن لما كانوا يفسرون هذه الخصوصية بطريقة واقعية (روحية) فلم نصل الى تحرير السيكولوجيا من المثل الأعلى الاول للدقة ، الذى لم يدخل الى السيكولوجيا الا من جراء الواقعيـــة • ونشأت حول هذه النقطة أيضا صعوبات أدت الى استمرار المناقشات حولها ، فكان البعض يعتقد أن الطريقة المضبوطة الوحيدة هى تطبيق القوانين الرياضية واستخدام الاجهزة التجريبية ، بينما كان البعض الآخر يعتقد أن هـــذا مستحيل بالنظر الى خصوصية الظـــاهرة السيكولوجية • فمن ناحية يوجد اتهام « بالمظهر العلمى scientisme» ومن ناحية أخرى اتهام بالنزعة الادبية• وهذه هى النتيجة الصحيحة الوحيدة التى وصلت اليها تلك المناقشة •

والصعوبة فى هـــذا الصـــدد هى أن ما أرادوا ادخاله فى السيكولوجيا ليس الدقة على وجه العموم وانما دقة من نوع خاص • فالواقع أنهم لم يبحثوا عن صياغة شروط هذه الدقة بحيث يكون

تعريفها مستقلا عن أى مضمون ، بل كان هدفهم الدقة أو الضبط التى تحتوى مسبقا مضمونا معينا من حيث العدد والحجم • وهكذا نسوا أن الضبط الرياضى أو التجريب الرياضى ليس الا شكلا من أشكال الدقة التى تجعل من النظام بشكل عام علما وضعيا • لقد نسوا ذلك لان تحديد صيغة تلك الدقة (الضبط) بشكل عام لتتفق مع السيكولوجيا يتضمن تجديدا جذريا على حين أن صيغة الدقة العليا كانت جاهزة من قبل فى علوم الطبيعة • ولقد حاول مصلحو السيكولوجيا أكثر من مرة تطبيق قاعدة الجهد الاقل •

وعلى أى حال فانه لا يجب الخلط بين هذه الدقة (الضبط) التى تميز العلوم الوضعية عموما وبين الجهاز الرياضى • فنحن نسمى الفيزياء علما مضبوطا رغم أنها ليست بالدقة أو العقلانية الكاملة ولا نحن نضفى عليها هذه التسمية لمجرد أنها تتضمن صيغا رياضية • ويمكننا أن نذهب أبعد من ذلك فنقول ان لكل علم وضعى ضبطه الخاص به • فالفسيولوجيا لها ضبط خاص بها ، ولا يقتصر ذلك على استخدام الرياضيات وانما بسبب اختزالها المنظم للوقائع الفسيولوجية الى ظواهر فيزيائية ـ كيميائية • بل نستطيع القول كذلك أن العلوم الوصفية البحت تتضمن نوعا من الضبط • ومن الواضح هنا أن السمة المميزة العامة للضبط تكمن فى شىء آخر غير استخدام الجهاز الرياضى أو التجريبى • فقد يستطيع نظام استخدام الجهاز الرياضى التجريبى ـ ولايتخطى مع ذلك المستوى الاسطورى • فالكثير من التجارب السيكولوجية وغالبية التطبيقات الرياضية المستخدمة فى السيكولوجيا تثبت ذلك •

وكما أن التمييز الاساسى بين الميثولوجيا والعلم ، هو أن العلم يبحث عن معرفة الوقائع فى مستوى الوقائع نفسها ، فان الضبط يتحدد بمدى مطابقة المعرفة للوقائع المدروسة • كل ماهنالك أن هذا التطابق ليس ميتافيزيقيا ولكنه تجريبى أى أنه تطابق مع نوع الدقة الملائمة للموضوع •

وهكذا نرى أن تأكيدات مثل : كل شىء يتحرك ، أو الطبيعة عود لا نهائى ، أو الطبيعة مسرح لصراع دائم بين قوى متضادة ٠٠ هذه التأكيدات غير مطابقة لنوع الدقة الملائم لموضوعها ٠ ومثلها فى ذلك مثل تلك الفكرة الشائعة : ان القانون الشامل للحياة الاقتصادية هو الأنانية الانسانية ٠ فهى ليست خاطئة خطأ مطلقا ، ولكنها لا تصل الى أشكال الحياة الاقتصادية فى دقتها المعينة : فهى ليست تقريرا تنبع عباراته من هذه الاشكال نفسها ٠ وفى الحقيقة فان الحياة الاقتصادية لا تبين لنا الانسان على وجه العموم ، انما تبين لنا الطبقات ، وهى لا تبين لنا الانانية بشكل عام وانما مصالح طبقات ٠ وعندما يصل الامر الى أنانية الطبقة فهى لا تبينها فى شكل عاطفة سيكولوجية ولكن فى شكل بنوك واحتكارات ودول ٠ فالتوكيد السابق لا يصبح قانونا اقتصاديا الا اذا أصبح يطابق الاشكال الدقيقة الخاصة بالوقائع التى يتناولها ٠ وبعبارة أخرى فان أى نظام يكون علما وضعيا حالما يطابق محتواه نفس الاشكال التى تتحدد فيها الموضوعات التى يبحثها ٠ والانتقال من المرحلة قبل العلمية الى المرحلة العلمية ، يتلخص بحق فى الانتقال من عدم التطابق الى هذا التطابق الذى تكلمنا عنه ٠ والتطور نحو الشكل الرياضى لا ينتمى الى هذا الانتقال ، بل هو لا حق له على الاقل من الناحية المنطقية ٠

- ١٢ -

من السهل أن نتبين أن للدراما خاصيتين أساسيتين : أن أحداثها فريدة متعينة « فى الزمان والمكان » ، وأنه لا يمكن فهمها الا بالرجوع الى الافراد المعينين كل فى وحدته الفريدة ٠ فالزواج يحدث فى مكان معين ولحظة معينة بين فردين معينين ٠ وكذلك الجريمة أو الرحلة ٠ والظاهرة السيكولوجية بشكل عام هي دائما

مقطع من حياة الفرد المعين • وأى وسيلة أخرى للنظر اليها تدمر واقعيتها •

فاذا جردنا الزواج من خصائصه «الها هنا والآن» hic et nunc فاننا نخرج من السيكولوجيا الى القانون أو التاريخ أو الاجتماع • ولكى نفهم الزواج من حيث كونه ظاهرة سيكولوجية فقط فيجب اعتبار الافراد من حيث تفردهم أو تميزهم • فالملكات العقليـــه والأفكار والعمليات لا تتزوج ، وما أن نستبدل الأفراد بمخلوقات من هذا النوع فان حقيقة الظاهرة الدرامية تختفى فورا •

ولكى يمكن اعتبار حقيقة ما متعلقة بالسيكولوجيا فيجب انه يكون لها علاقة بالدراما • يجب أن تعبر عن شىء ما لشخص ما • وهكذا نجد مثلا أن قوانين ارتباط الأفكار ليست حقائق سيكولوجية فاذا كانت حقيقية فهى تنتمى لنظـــام آخر لم يخترع بعد ، لان موضوعات الاحكام التى تعبر عنها ليست أفرادا من النـــاس بل انكارا ، والأفعال التى تبحثها ليست ممـــا يقوم به الأفراد بل الأفكار •

ولكى يعتبر أحد تقريرات السيكولوجيا معرفة ســيكولوجية يجب أن يكون تعبيرا كاملا عن الظواهر الدرامية فى تميزها الفريد• فالتأكيد الذى بموجبه تكون الاحلام ناتجة عن انصراف عن الواقع لايمكن اعتباره معرفة سيكولوجية لأنه لايعبر تعبيرا كاملا عن الظاهرة الدرامية في تفردها • فلكل حلم فى الواقع محتوى خاص • ولكن القضية المذكورة لاتمدنا بأى وسيلة للاحاطة بهذا المحتوى • بل هى تسمح فقط بتقرير نفس الشىء عن كل الاحلام تقريرا قبليا بحت• وهذا القول يصدق على كل المقررات والنظريات السيكولوجية التى تتضمن الشكلية (formalisme) فالشكلية تبدأ باستبعاد الحتمية الفردية بالذات من الظواهر الدرامية • فهى تستبعد المحتوى الخاص

للحلم اذا تنـــاولت الاحلام ومحتوى الفكر اذا تنـــاولت الأفكار والخصائص الهاهنا والآنية hic et nunc للأفعال ومغزاها الدرامى اذا تعلق الأمر بالأفعال . ومن الطبيعى أن تكون كافة التوكيدات الصادرة عن الشكلية غير قادرة على الافصبـــاح عن الدراما بالدقة الخاصة بالدراما .

أما « الكليات » totalités التى يركز عليها السيكولوجيون فيصدق عليها ما ذكرنا : يصدق أولا على الكلية الوظيفيـــة التى اخترعها بعض السيكولوجيين « كبرجسون » ليبدو أنه ادخل اصلاحا على تلك السيكولوجيا ، اصلاح يقنع بالتعدد البسيط للوظائف . ويؤكدون ان تعدد الوظائف لم يستعمل الا لحاجة التحليل اليه ، اما فى الحقيقة فالفرد « كلى » . الا أن هذه العبارة الاخيرة لا تعدو أن تكون براعة لفظية اذ تظل المشاكل الوظيفية فى الواقع لب الظاهرة أما « الكلية » فتبقى شكلية . ذلك لأن الانســـان شىء آخر غير التشابك مهما بلغ الغاية فى التعقيد ، وغير الانصهار ـ مهما كان كليا ـ بين الوظائف العقلية .

وذهب بعض السيكولوجيين ابعد من ذلك ، فاتجهوا الى ادراك « كلية » مطلقة ليست هى المجمـــوع ولا التركيب synthèse ولا الاندماج ولا تشابك الوظائف العقلية وانما هى ذاتها بناء مستقل وقانون شامل ، وجوهر الانسان اذا صح استخدام كلمة جوهر . ولكن طرح المشكلة على هذا النحو طرح غير سليم ، فليس المقصـود ان ندرس ـ الى جانب الدراسة الواقعيـــة والمجردة والشكلية للانسان ـ ما يأخذ فى الاعتبار أيضا « وحدته » ، وانما ينبغى أن ندرس الانسان على نحو يستهدف وجود « الكلية » فى كافة أنحاء الدراسة . وليس المقصود مثلا أن نستوفى كل ما يمكن للسيكولوجيا الكلاسيكية أن تزودنا به عن الوظائف العقلية ثم نؤكد بعد ذلك وجود البناء الكلى وانما ينبغى أن نبدأ بصياغة أصغر ظاهرة على نحو

يجعل فهمها لا يصح فى الأذهان دون الكلية الفردية · وبعبــارة أخرى فان كلية الفرد لا يجب أن تكون هى النهاية والتتويج للبحث ولكن الفرض الأول فيه · ولا جدوى من محاولة جعل الكلية قضية خاصة ·

ويجب فضلا عن ذلك أن نشير توا الى ان كل وجه من أوجه الدراما تقابله انواع مختلفة من الدقة ·

وموضوع السيكولوجيا الصحيح هو مجموع الأحداث الفريدة التى تأخذ مجراها ما بين بدء الحياة والموت · ولكن هذه الأحداث نوعان ، بعضها حر وبعضها الآخر **موحد فى قالب مفروض** * الأولى تظهر خلال مجرى الحياة الفردية فى متابعة هذه الأهداف أو تلك والثانية يجب على الفرد بلوغها وتمثل الضروريات الفيزيقيـــة أو الاجتماعية او الاقتصادية · الاولى تتضمن حياة الفرد كما هى ، والأخرى تتضمن وضع الفرد داخل نظام ومقتضيات محددة · بهذا فان شابا جميلا وغنيا وذكيا قد يتزوج او لا يتزوج من فتاة قبيحة وفقيرة وغبية وهذا الحدث قد يقع او لا يقع فى حياة الفرد · فهـو حدث غير موحد القالب ·

وعلى العكس نجد أن العمل يمثل بالنسبة لأغلبيـــة البشر ضرورة محتمة · الا أن شكل العمل لا يكون ـ مثل التثبيت الشهوى ـ متروكا للمسار الحر للحتمية الفردية ، اذ يجب تقديم عمل معين بالذات يحصل الفرد فى مقابله على عائد · والفرد اما ان ينخرط فى هذه الحتمية واما سيفنى · وليس المهم هنا ما يكون عليه الفرد بعامة ولكن وجود قدرات خاصة لديه وحصوله على عائد معين ·

فعلى حين أن الأحـــداث الحرة تفترض الفرد فى تفرده المعين ولا تفهم الا بواسطته ، فانه بالنسبة للأحداث الموحدة القـــالب

* standardisés

لا يكون الفرد الا قطعة للتعامل ، أو مجرد واسطة أو على وجه الدقة أداة .

وهكذا تنقسم السيكولوجيا الى قسمين كبيرين : فمن ناحية علم النفس الفردى ومن ناحية أخرى علم النفس العام . الا ان الاثنين يجب أن ينطلقا من نفس المنبع وهو الاحداث الدرامية التى تكون موضوعهما وتتسق مع نوع الضبط الملائم لكل منهما .

وأهم نتيجة تترتب على ذلك هى أن خطة العمل لعلم نفس عام يدعى أنه علم يجب ان تنبثق لا من تصور مسبق لهذا او ذاك من ملكات أو وظائف النفس ، ولكن من تحليل الاحداث الموحدة القالب للدراما كما هى فى الواقع . وبدلا من البدء بتعديد وتعريف مجموعة من المفاهيم التقليدية ، يجب على العكس البدء من تحليل الوقائع الدرامية ذاتها : مثلا للعمل كما هو فى المصانع ، واينما يوجد ناس يقومون بأعمال محددة وللحرف كما تمارس ... الخ

وعلم النفس العام الشائع يعمل بطريقة مختلفة تماما . فهو يبدأ باشارة سريعة جدا الى أنه فى الحياة النفسية يتضح لنا عمل مجموعة من الوظائف ، ويقدم لنا من جديد بعد ذلك مع تغيير طفيف أو كبير أهم ما فى القائمة الكلاسيكية لملكات النفس . وهذه القائمة كما يقولون ناتجة عن التحليل ولكن تحليل ماذا ؟ انه ليس بالتأكيد تحليل الدراما كما حدثت فعلا وانما تصور غامض جدا للحياة النفسية مدرك بالطبع بطريقة تسمح للتحليل أن يستخلص منها بعد ذلك الوظائف التقليدية ولم نر كتابا واحدا فى علم النفس العام يبدأ بتحليل دقيق للأحداث الموحدة القالب للدراما أو بالتحليل الدقيق لمختلف الأوجه والعوامل وظروف العمل والحرفة ... الخ.

واليكم أول سمة قبل عملية : **ان علم النفس العام الشائع يبنى خطة عمله لا على تحليل الوقائع الفعلية المعطاة له ولكن عن**

ايمان بتقاليد لم يأخذ على عاتقه التحقق من صدقها بشكل منظم ٠

فعلم النفس العام الشائع لا يبدأ من الوقائع ليصل الى المفاهيم والنظريات بل العكس فلا يبدأ السيكولوجيون من وقائع الدراما الى حيث يجب أن يقودهم التحليل ، بل يبدءون من المفاهيم والتعريفات. وهكذا نجد أنفسنا « تائهين في البحر » لا ندرى أين نذهب وليست لدينا أى فكرة عن مدى اتساع ودقة الوقائع التى يجب أن نطبق عليها النظرية ٠ فندرس مثلا الارادة ولكن نجد أنفسنا نأخذ بلا تبصر أى شيء وفق الفكرة التى تكون فى رأسنا عندئذ : الفرد ، المجتمع ، تداعى الأفكار ، الوراثة ، الغدد ذات الافراز الداخلى ٠ وتبدو الارادة شيئا مطاطا جدا ، توافق كافة النظريات ، اذ لما كنا قد بدأنا بأن نراها كل مرة بحثا عن النظرية فلا يمكننا بالتالى استبعاد أى نظرية ٠ وبما أننا أخذنا فكرة الارادة بلا أى تحديد فليس ثمة ما يمنع ادراكها بحثا عن النظرية فحسب ٠ وبالتالى يصبح عدد الابحاث والنظريات لانهائيا : ولن نعرف أبدا أين نحن بالضبط ٠ وسوف نرجيء الحساب دائما ، ـ يحدونا الايمان الصادق ـ الى ما سوف يأتى به المستقبل من الاستكمال ٠

واليكم السمة الثانية قبل العلمية : ان ابحاث علم النفس العام العادية ابحاث تتخبط على غير هدى فليس لديها أى فكرة عن الخطة التى يجب ان تتبعها ، أو عن العلامة التى ستعرف بها مدى تقدم الابحاث أو بلوغها هدفها منها ٠

فالانطلاق من المفاهيم الى الوقائع بدون معرفة الى أين نتجه أو أين نتوقف جعل علم النفس العام الشائع لا يعرف أبدا هل ما بلغه هو الكل أو هو جزء فقط ٠ ولذا فهو يؤكد دائما أنه بلغ الكل ٠ وهو يبغى أن يعرف كل شيء اعتمادا على حالات خاصة

تماما ، فالأبحاث المتعلقة بالادراك مثــلا كانت متركزة حتى وقت قريب حول مشكلة ادراك الاشياء لا لشيء الا لأن التصور الكلاسيكى يعتبر الادراك وسيلة معرفة العالم الخارجى ٠ والمشكلة الرئيسية عندئذ هى معرفة كيف يدرك الانسان عموما الاشياء بصفة عامة ٠ ولكن ربما لا يكون ذلك سوى حالة خاصة ومجردة تماما ٠ فبــأى حق لا ندفع بالتحليل قدما الى الموقف حيث يكون « الفرد المدرك » « عاملا » « والشيء المدرك » آلة ؟ فمن الواضح أن التجريد والشكلية هما اللذان يجعلان من الادراك عموما مركز الاهتمام ٠ الا اننا اذا اردنا ان نطرح جانبا هاتين الخطوتين وسرنا حتى النهاية أى حتى الدراما ، فان الاسلوب الكلاسيكى لعرض المشاكل كله يفقد معناه تقريبا ٠ فاذا دفعنا مثلا تحليل الادراك الى النقطة التى يكون فيها الفرد المدرك عاملا والشيء المدرك آلة بشكلها المحدد فان المشــكلة المبدئية التى بدأنا منها تصبح فجاة غير ذات موضوع ، اذ نجد محل مشكلة الادراك مثلا مشكلة « سيكولوجية العمل » ٠

فاذا طبقنا اسلوب التفكير هذا على مجموع مشاكل علم النفس العام فسنجد أننا سنستبدل بسيكولوجية الادراك والذاكرة والارادة والعواطف سيكولوجية العمل والحرفة ، والتعلم فى الصناعة ٠

اليكم السمة الثالثة قبل العلمية لعلم النفس العام الشائع : وهى أن أبحاثه أبحاث شائهة تقف قبل أن تستطيع بلوغ الوقائع المتعلقة بها بالدقة اللائقة ٠ وهذا أمر محتم ٠ فســوء حظ هذه السيكولوجيا يتمثل بالذات فى عدم استكمال ابحاثها مما يجعلهــا غير كافية ، بينما اذا حققت ما هو مطلوب منها تصبح غير ذات غناء ٠

وهكذا يتضح الطابع الحقيقى لما اصــطلح على تســميته بالسيكولوجيا العلمية ٠

والغلطة الكبرى لهذه السيكولوجيا المسماة بالعلمية انهـــا تذهب أبعد مما ينبغي وأقل مما ينبغى معا · فهي تذهب بعيدا جدا في الاعداد لتجاربها ولكنها لا تذهب بما فيه الكفاية فيما يتعلق بالأسلوب الذى تتصور به هذه التجارب · فهى تدرس بترف بالغ من الاجهزة والاحتياطات العلاقات بين الادراك الضوئى والحركات مثلا · وهى لا تكاد ان تقنع بالاحتيـــاطات التى تتخذ والاجهزة المستخدمة مهما بلغت من الدقة ولا يوجد سوى شىء واحد يقنعهـا تماما وهو بالذات ما نراه قاصرا ونعنى به تصور الظاهرة التى تجرى عليها التجارب فهى تبدأ فى الواقع من الادراك الضوئى عمـــوما والحركة عموما وتبحث بعد ذلك عن ظاهرة تمثل بطريقة متميزة الادراك الضوئى عموماً والحركة عموما والمشكلة العـامة للعلاقات بينهما فى نفس الوقت · ولكن التجربة شائهة كما سبق القول · فاذا كان الضوء يؤثر على الانسان فلا يحدث ذلك الا فى ظروف محددة وما يدخل الضوء معه فى علاقات ، ليست الحركة فى عمومها وانما أفعال انسانية · فالبحث عن العلاقة بين الادراك الضـوئى عموما والحركات عموما انما هو من عمل التجريد والشكلية وان ما يسمى « بحالة متميزة » ربما لا تكون الا حالة خاصة لا نجهل فقط دورها الحقيقى فى الدراما بل لعلها لا تحدث فيهـا على الاطلاق ·

ويجب على العكس أن ندفع التجربة حتى النهاية ، حتى اللحظة التى نجد فيها الدراما ثم نحلل بعد ذلك الظـاهرة كما نجدها وبالشكل الخاص الذى نجدها عليه · فسنجد مثلا أن العمال الذين يقومون بعمل محدد فى اضاءة محددة ينتجون عائدا محددا · وأن تغيير الاضاءة قد يزيد من هذا العائد أو يقلله · وهكذا نلاحظ اننا ابتعدنا عن المشكلة التى بدأنا منها ، فنجد بدلا من المشكلة العـامة للادراك والحركة ، المشكلة المحددة المعطاة فعلا عن الاضاءة وانتاجية

العمل . ويستطيع الجميع أن يقرروا هنا أنه يجب أن تكون هنـاك غمامة على العين لكى لا نرى فى هذه الظاهرة الأخيرة « ادراكا » من ناحية « وحركة » من ناحية أخرى .

ويمكننا بالتأكيد أن نعود من هذه المشكلة الخاصة وأمثالهـا الى المشكلة العامة . ولكن يجب أن نبدأ بالمشكلة الخاصة ، فربما وصلنا الى مشكلة عامة مختلفة تمـــاما . وعلى أى حال فاننـــا اذا ما انطلقنا من فكرة الادراك وفكرة الحركة وأدركنا انجاز البحـوث والتجارب فسنجد أنفسنا أمام ما لا يمكن تحقيقه : فلا يمكن أن نستبدل التركيب بالاستقراء .

فالسيكولوجيا المسماة بالعلمية ليست اذن ـ اذا ما طرحنـا جانبا أوهامها الفلسفية وطابعها الأسطورى ـ خاطئة . ولكنها مع ذلك قبل علمية . والســمة قبل العلميـــة تتلخص هنا فى أن السيكولوجيا « العلمية » قد قلبت التتابع الطبيعى للأشياء وذهبت تعمل بطريقة مضادة للطريقة المعتادة التى تعمل بهـــا العلوم التجريبية .

ويجب على السيكولوجيا بالتأكيد ـ شأنهـــا شأن العلوم الوضعية ـ أن تصل الى تعميمات أو الى معلومات عن الوظائف العامة ولكنها يجب أن تنتهى الى تلك التعميمات عن طريق التعميم أيضا ، لا أن تبدأ بالتعميمات كما تفعل السيكولوجيا « العلمية » . ولكى تحتفظ السيكولوجيا بالتعميمات التى أتت بها كما هى اليوم يجب أولا أن نتبين ما اذا كان تحليل الظواهر الموجودة بالفعل أى الظواهر الدرامية لا يصل الى تعميمات مختلفة تماما .

ومن ناحية أخرى فان سيكولوجيا الاحداث الموحدة القـالب كسيكولوجيا العمل تحتاج بالتأكيد لمعارف مستمدة من الفسيولوجيا . الا أن هذا ليس سببا لنبدأ بالفسيولوجيا : ففى هذه الحالة سنكون

أمام ما لا يمكن تحقيقه مرة أخرى . لأن التحليل للأحداث الدرامية هو وحده الذي يستطيع أن يبين لنا ما هي بالضبط المساعدة التي نطلبها من الفسيولوجيا . فعلم النفس الفسيولوجي يريد على العكس ، بسبب ازوراره عن البدء من الدراما ، أن يحسم الأمر قبليا بفروض حول العلاقة بين ظواهر الشعور والجهاز العصبي . وهي فروض مناسبة بلا شك اذ تسمح باقامة « العلم » كله قبليا.

وهكذا يستعار من الفسيولوجيا كل ما لا حاجه للسيكولوجيا به ويترك ما هو ضروري بالفعل ولما كانت السيكولوجيا بناي عن الانزلاق في الاستعارات اللفظيه لاستكمال ما ينقصها فان النتيجة انها تقف ببساطة في منتصف الطريق . وهنا أيضا نجد الوضع مقلوبا : فلا يحدث أبدا أن مجال العلم الوضعي يتحدد ومناهجه تعرف ابتداء من العلوم المساعدة ، فنحن لا نحدد مجال الفيزياء مثلا ابتداء من الاحصاء . لأنه بدون تعميق أبحاث الفيزياء لم يكن من المستطاع أن يقال أن الفيزياء ستحتاج يوما للأسلوب الاحصائي . فالأبحاث التي تمارس التحليل الفعلي للدراما ، وخاصة للدراما الموحدة القالب هي التي تجعل من علم النفس الفسيولوجي المرحلة قبل العلمية . ولكن لا يوجد بين الفسيولوجيا الخالصة وسيكولوجيا الدراما مكان لعلم نفس فسيولوجي لايهتم الا بالظواهر نصف المتصورة ، تماما كما لا يوجد مكان بجانب الفيزياء لفيزياء أخرى لا تدرس في الميكانيكا سوى سقوط الاحجار ، وفي الحرارة سوى الماء الساخن ، وفي الكهرباء سوى كرات نخاع البيلسان .

غير أنه ليس من الانصاف أن نقول أن علم النفس العام الشائع والسيكولوجيا المسماة « بالعلمية » وعلم النفس الفسيولوجي هي وحدها قبل العلمية . فقد قلنا من قبل انها على الأخص اسطورية ، ونحن لم نؤكد الطبيعة قبل العلمية الا لبعض نتائجها التي تحوي جزءا من الحقيقة . ذلك أن نتائج التراث الدرامي هي أيضا قبل علمية ،

فالأدب والمسرح والمعرفة العملية بالانسان هي بالذات التي تكون في مجموعها السيكولوجيا قبل العلمية فعلا • وتأتي الطبيعة قبل العلمية هنا من انعدام التنظيم للأساليب المستخدمة ومن عدم كفاية التحليل الدرامي (*) في نفس الوقت •

وكما قلنا قبل ذلك فان الاساليب المستخدمة في الأدب ولدى « العارفين بالانسان » ليست بعد سوى الخبرة الدرامية الشائعة • الا أن هذه العمليات التي تكفي لمتطلبات الحياة العادية لاتكفي للمعرفة بالمعنى العلمي لهذه الكلمة ، اذ أنها لا تتصف بالعقلانية ولا بالتنظيم وهي ليست عقلانية لأننا لا نعرف بالضبط وظيفتها ولا مداها المحدد • فنحن لا نعرف مثلا ما الذي تزودنا به الملاحظة الدرامية البسيطة وما الذي لا يمكنها أن تزودنا به • ذلك أن تلك الاساليب غير منظمة ما دام ليس بوسعنا لا في الأدب ولا في المعرفة العملية بالانسان ـ أن نعين بالضبط هذه الأساليب وأن نستخدمها بعد ذلك بتعقل •

وهذا هو السبب في أن المعطيات الفعلية للملاحظة تختلط في كل لحظة بالمقتضيات الأخلاقية والاجتماعية أو الدينية • وهذا هو ما يجعلنا أيضا نستخدم بلا تفكير بعض المسلمات التي تمثل تعميما غير شرعي للخبرة الشائعة • وهكذا توجد مجموعة من العلاقات ذات الدلالة في متناول كافة الناس مباشرة ، وهي العلاقات الشائعة ذات الدلالة التي تدخل فيها عادة أقوالنا وأفعالنا • فالمعرفة العملية بالانسان تعميم وهي تعتقد أن أقوالنا ومعانينا لا تدخل دائما الا في علاقات ذات دلالة متعارف عليها وهي تفسر أقوالنا وأفعالنا على مستوى الدلالات المتعارف عليها • ونجد أنفسنا هنا بصدد مسلمة : هي : ما أطلقنا عليه مسلمة الدلالات المتعارف عليها (نقد أسس السيكولوجيا • جورج بوليتزير) • فقد يحدث في ظروف بعينها

---

* نحن لا نهتم بالفكرة القائلة بأن المعرفة العملية بالانسان قبل علمية لانها تبدأ « بالحدس » فنحن لا نعلم ما هو المقصود بكلمة « حدس » • المؤلف

أن قولا أو فعلا يعنى شيئا آخر غير الدلالة المتعارف عليها والتى يحملها عادة ذلك القول أو الفعل، أو أن لها دلالة على حين أنها على مستوى الدلالات المتعارف عليها تبدو بغير دلالة . وهذه هى حالة الحلم والأعراض العصابية التى تستدعى معرفة دلالاتها بحث مجال الدلالات الفردية . أما المعرفة العملية بالانسان المطبقة على تفسير الدلالات المتعارف عليها فهى عاجزة عن اكتشاف هذا المجال .

فعدم كمال طرق البحث يؤدى بالطبع الى عدم كفاية التحليل الدرامى . والتحليل الدرامى نفسه موجود بالتأكيد فى الأدب وفى المعرفة العملية بالانسان لأنها تحلل الدراما بواسطةالدراما نفسها. ولكنها تقف عند السطح بدلا من الوصول الى العناصر العميقة للدراما . فهى تفسر الفعل الانسانى بعوامل عامة : الغرور، الطموح، الحب ، الرغبة فى الحياة أو الرغبة فى الموت ، المصلحة ... الخ . الا أن هذه العوامل نفسها مستقاة من سطح الخبرة الدرامية ولاتمثل تشريحا حقيقيا ، كما هو الحال مثلا فى تفسيرات التحليل النفسى .

وهكذا لا يبلغ التحليل الدرامى دقة الدراما الحقيقية . فدوستويفسكى يقدم لنا شخصيات تهدمبانتظام فى اللحظات الهامة من حياتها السعادة التى تنتظرها ، الا أن الدقة لا تذهب الى أبعد من ذلك الذى يقدمه لنا . بل على العكس لا نرى السبب فى نشوء هذه الرغبة فى التعاسة اذا بدأنا من الحياة الفريدة للفرد المعين موضوع الدراما ، مثلما نرى بعد التحليل أن الحلم فى الشكل الذى ظهر به لا يمكن أن يحلمه الا ذلك الشخص الذى حلمه.. وهكذا الحال بالنسبة للمعرفة العملية بالانسان . وهذا طبيعى فان الابراز الدقيق للحتمية الفردية خطوة خطوة لا يمكن الا بفضل العناصر الاساسية للدراما ، تلك العناصر التىلا يمتلكها الادب ولا المعرفة العملية بالانسان ولن نستطيع بواسطتهما كذلك أن نصل اليها طالما ظلت أساليبهما كما هى .

وسنطلق على شكلى السيكولوجيا الخاطئين اسم الميتاسيكولوجى رغبة في التبسيط • وهـذا التعبير فى الواقع بعيـد عن الصحة • فالسيكولوجيا الميثولوجية هى فقط التى توجد «فيما وراء» الدراما • أما النسيكولوجيا قبل العلمية فأخرى أن توجد « فيما بعدها » • الا أن مشـاكل واهتمـامات وتقاليـد الاثنين بعيـدة عن اهتمـامات السيكولوجيين ، على الاقل عن اهتمامات هؤلاء الذين يريدون اقامة سيكولوجيا وضعية •

وهكذا يصبح من الممكن تعريف ماذا يوجد على هذا الجانب أو ذاك فى التنـاقض بين الشـكل الخـاطىء علميـا والصحيح فى السيكولوجيا •

فمن ناحية توجد الميتاسيكولوجى وتشمل :

١ ـ ميتاسيكولوجيا النفس جوهر ame substance وتتكون من كل الاعتبارات الميتافيزيقية المتعلقة بالنفس •

٢ ـ ميتاسيكولوجيا ظواهر النفس ، أو ميتاسيكولوجيا الحياة الداخلية وتتكون من كل الاعتبارات المتعلقة بأحوال النفس والعمليات العقلية وظواهر الشعور وطبيعتها وخصائصها وتصنيفها ، وبشكل عام الحياة الداخلية بأى طريقة توجد بها •

٣ ـ الميتاسيكولوجيا الوظيفية وتشمل كافة الاعتبارات المتعلقة بالوظائف العقليـة وكذلك كل الاعتبـارات الوظيفية التى تتخذ

---

* لابد أن بوليتزير بالرغم من اطلاعه على منجزات التحليل النفسي كما هو واضح من الفقرات السابقة ـ لم يفطن الى ان لفظة «ميتاسيكولوجيا» مصطلح فى التحليل النفسى يشير الى المفاهيم النظرية : الدينامية ـ البنائية ـ الاقتصادية ، فاستخدمها فى المعنى الذى يوضحه فى هذه الفقرة والذى يضع « الميتاسيكولوجيا » على نفس مستوى مصطلح الميتافيزيقا . (المراجع)

موضوعا لها واحدا أو أكثر من الوظائف العقلية فى السيكولوجية الشائعة ، وبشكل عام كافة الاعتبارات الوظيفية التى لم يستخلص موضوعها مباشرة من تحليل الدراما الفردية أو الدراما الموحدة القالب والتى لا تبلغ دقة الدراما كما هى معطاة ·

٤ ـ ميتاسيكولوجيا الشخص وتشمل كافة النظريات المتعلقة بالذات والأنا والشخص والفرد والتى لا تنطلق من تحليل الفرد فى فرديته ، والعاجزة عن أن تبرز الحتمية المستمرة للمحتوى الخاص بحياة الفرد ·

٥ ـ ميتاسيكولوجيا الانسان وتتكون من كافة النظريات المتعلقة بانفعال وسلوك الانسان والتى لا تتخذ أساسا لها التحليل الدرامى والتى لا تصل الى كشف العناصر الدرامية الموجودة تحت سطح الخبرة الدرامية الجارية ·

ومن بين أضرب السيكولوجيا الخاطئة يكد يجمع كافة علماء النفس على أن ميتافيزيقا النفس (الروح) هى وحدها التى تنتمى الى الميتاسيكولوجيا · أما أضربها الاخرى فما زال لها صيت السيكولوجيا الوضعية ·

والمهم الآن أن يصبح المدى الكامل لمفهوم الميتاسيكولوجية معروفا فى النهاية وأن يمتد نزع الثقة الذى يدمغ اليوم أنصار ميتافيزيقا النفس ـ أمام أعين أنصار السيكولوجيا الوضعية ـ الى أنصار بقية أضرب الميتاسيكولوجيا · فنحن نقول بوضوح : أننا لا نستطيع أن نعتبر علماء النفس الذين لا يريدون أن يفيدونا بأى شىء عن العمليات النفسية ، علميين · فقضايا الحياة الداخلية قد تسرنا لكنها لا تنتسب الا الى الاساطير · كذلك لا نستطيع اطلاق لقب عالم على هؤلاء الذين ، تحت اسم نظرية الادراك أو نظرية الارادة أو نظرية الانفعالات ·· الخ ، يؤلفون روايات قد تكون

ناجحة أو مسلية بعض الشيء • لأن العالم هوالذى يعرف شيئا ما عما هو موجود فعلا • أما هذه النظريات فهى بالنسبة للمعرفة السيكولوجية كاعتبارات « قسوة الطبيعة » بالنسبة للمعرفة الفيزيقية • وهذه هى الحال بالنسبة للنظريات عن « الأنا » •

فالنظريات التى تقول «الأنا هى الارادة» أو «الأنا هى مركب» synthèse أو « الانا هى بناء » لا تحمل لنا شيئا ، لأن الموضوع الذى نرغب معرفة شيء عنه هو الأفراد المعينون الذين يحيون حياة محددة المحتوى • ومن ناحية أخرى نحن لا نستطيع أن نكتفي بتوكيدات غامضة حول دوافع الفعل الانسانى • نحن نريد الآن ، ونحن بصدد العلم ، أن نودع رجال الأدب والأخلاق ومعهم ميتاسيكولوجيا الانسان •

أما فيما يتعلق بالجانب الآخر المعارض فنحن نريد أن نقول ببساطة أنه فى مقابل الميتاسيكولوجيا تقف الوضعية • ولكن الفوضى الحالية فى السيكولوجيا كبيرة جدا لدرجة أننا لانستطيع أن نستغنى عن أطلاق تسمية خاصة حتى على هذا الشكل من السيكولوجيا الذى يصبو الى أن يكون وضعيا • لذلك نحن نريد أن نستعير الاسم المستخلص من السمة الأساسية التى تمثل الفرق الحقيقى بينها وبين الميتاسيكولوجيا لنعطيه للشكل الحقيقى للسيكولوجيا •

فالميتاسيكولوجيا تتميز بتحويل الدراما بمساعدة الواقعية الروحية والتجريد والشكلية • واذا أردنا أن نعبر فى صيغة واحدة عن العيب الجذرى للميتاسيكوجيا فيجب أن نقول أنه خان الواقع العيانى concret ثلاث مرات • فكل خطوة من خطواته الرئيسية تقابلها خيانة معينة •

فالواقعية الروحية تلغى واقع الظاهرة الدرامية نفسه كما هو معطى عيانيا • والتجريد يستبدل بالأفراد العيانيين الذين يكونون

موضوع الدراما ، ممثلين آخرين لا شخصيين . والشكلية تلغى الأسلوب المحدد الذى تتعين به الوقائع الدرامية ولا تحتفظ الا بأشكال لا يوجد للحتمية الفردية فيها مكان . وهكذا يكون عالم الميتاسيكولوجيا مجردا بالمعنى الكامل للكلمة ، عالما من العمليات والوظائف التى تحلق عاليا فوق الحتمية الفردية للدراما وتخضع لعلاقات ليس لها أى مغزى انسانى .

أما السيكولوجيا الوضعية التى ترفض هذه الخطوات فانها ترجع الى العيانى . فمن «منجزات» réalisation الميتاسيكولوجيا تعود الى وقائع الدراما ، ومن الوظائف والعمليات تعود الى الأفراد كما هم ، ومن مفاهيم التصنيف تعود الى الوقائع الدرامية فى حتميتها الفردية . فتخطى السيكولوجيا الاسطورية هو اذن عودة الى العيانى . وتتميز السيكولوجيا الوضعية فى مقابل الميتاسيكولوجيا بأنها سيكولوجيا عيانية فالسيكولوجيا العيانية ليست اذن احدى السيكولوجيات ولكنها هى السيكولوجيا بالمعنى القاطع المانع لهذا التعريف .

ومن ثم نقول :

١ ــ أن السيكولوجيا هى علم موضوعه مجموعة الوقائع الأصيلة الفريدة المسماة « الدراما » فالوقائع السيكولوجية اذن هى أجزاء الدراما وكذلك ينبغى أن تكون الواقعة السيكولوجية البالغة البساطة جزءا من الدراما كذلك .

٢ ــ ونحن نطلق أيضا اسم « اسطورى » على هذا الشكل من السيكولوجيا الذى يحول الدراما الى عمليات عقلية عن طريق الواقعية الروحية والتجريدية والشكلية كما نطلقه بصفة عامة على كل سيكولوجيا توجد فيها هذه الخطوات بأى شكل من الأشكال .

٣ ــ كذلك نسمى « قبل علمى » كل شكل من أشكال

السيكولوجيا لا يستمد من التحليل الحقيقى للدراما خطة لدراسته ومجموعة مشاكله ، ولا تمس توكيداته الظواهر الدرامية فى صميم دقتها •

٤ ـ ونطلق كلمة ميتاسيكولوجيا على مجموعة البحوث والنظريات التى حددناها فى التعريفين ٢ ، ٣ •

- ١٤ -

ونود هنا أن نضع جانباً القيمة الوضعية لمفهوم السيكولوجيا العيانية concrète ،لكى نتفرغ للأسلوب الذىتمكننا بواسطته من القاء ضوء جديد على كل الصعوبات والاعتراضات التى تكون الأزمة الحالية للسيكولوجيا • فاذا كانت هذه السيكولوجيا العيانية هى بالفعل السيكولوجية الوضعية لوجب أن تقدم لنا فعلا الرؤية الجديدة للمشاكل ، تلك الرؤية التى نتوقعها من مفهوم وضعى حقا للسيكولوجيا •

فالمشاكل بشكلها القائم اليوم لا تتناول الجوهر ، كما أن العبارات التى تصاغ فيها التعارضات الكبيرة فى السيكولوجيا المعاصرة لا تعبر عن الموقف الحقيقى • فالخطأ يكمن دائما فى احلال الأشياء فى غير محلها ، ويكون الجوهر فى كل مرة عودة الى العيانى• وهذا هو السبب فى أن السيكولوجيا العيانية تمثل الجماع * الحقيقى للأضداد القائمة كما أنها قادرة على حل الصعوبة الكامنة فى أساس كل منها •

---

* الجماع من كل شيء مجتمع أصله (المعجم الوسيط) • يشير بوليتزير هنا الى فكرة ديالكتيكية • فهو يرى أن السيكولوجيا العيانية تمثل جماع الأطروحة synthèse لنقائض الاطروحة antithèses الممثلة فى نظريات علم النفس المختلفة • ونقترح ترجمة thèse بأطروحة و anti thèse نقيض أطروحة و synthèse جماع الاطروحة • (المراجع)

١ ـ والصعوبة التي تكمن فى أساس التعارض بين السيكولوجيا الذاتية والسيكولوجيا الموضوعيه هى ضرورة اهتمام السيكولوجيا بوقائع لها ـ منطقيا ـ نفس تركيب وقائع أى علم آخر • وينبغى أن تظهر هذه الوقائع تحت نفس الشروط التجريبيه ، على أن تظل فى الوقت نفسه وقائع أصيلة • ولكن السيكولوجيا الموضوعية لا تفى بما جاء فى الشرط الثانى على حين لا تفى السيكولوجيا الذاتية بما جاء فى الشرط الأول• وكلا السيكولوجيتين لا تفيان بالشرطين معا• لأن كلا منهما تبحث عن الواقعية السيكولوجية فى الادراك • وتؤيد السيكولوجيا العيانية الاتجاه الموضوعى لأنه يتمسك بضرورة رفض اعطاء السيكولوجيا موضوعا لا يمكن دراسته بنفس شروط العلوم الطبيعية ، كما تؤيد السيكولوجيا الذاتية حين تتمسك بالسمات الفريدة الأصيلة للوقائع السيكولوجية وتعيب السيكولوجيا العيانية على كل من الاتجاه الموضوعى والذاتى أنهما بحثا عن موضوع السيكولوجيا فى الادراك البسيط ، فالدراما التى ليست داخلية أو خارجية لا تنتج عن الادراك •

٢ ـ والصعوبة التى تكمن فى أساس التعارض بين السيكولوجيا كعلم « طبيعى » والسيكولوجيا كعلم « أخلاقى * » تأتى من ضرورة ادراج المقولات الأساسية وأساليب العلوم الطبيعية procédés فى داخل السيكولوجيا بشرط أن تظل محتفظة للظواهر السيكولوجية بالطابع الانسانى الذى لا يتوفر الا عن طريق الجانب ذى المعنى فى الدراما • ولكن لايمكن للسيكولوجيا بوصفها علما طبيعيا أن تدخل الى السيكولوجيا المقولات وأساليب العلوم الطبيعية بدون أن تخفى الطابع الانسانى للظواهر السيكولوجية ، ولا يمكن للسيكولوجيا بوصفها علما « أخلاقيا » أن تنقذ هذا الطابع الانسانى الا بأن تنقل

* فى الاصطلاح الفرنسى science morale مقابل للاصطلاح الالمانى Geisteswissenschaftliche انظر هامش ص ٢٢ (المراجع)

الظواهر السيكولوجية الى مستوى يجعلها بعيدة عن متناول المقولات والمناهج العلمية . وتؤيد السيكولوجيا العيانية .. هذين الاتجاهين من حيث تشبث كل منهما بما هو ضرورة لكل منهما . ولكنها تأخذ عليهما أنهما بحثا عن موضوع السيكولوجيا في عالم بعينه . أحدهما في عالم الطبيعة والثاني في عالم الروح بدلا من أن تبحثا عنه في الدراما . لأن كلا العالمين لا يمكن أن يظهر في المجال السيكولوجي الا بنوع من التجريد للدراما . وعلى العكس من ذلك اذا ما قبلنا أن نطرح جانبا هذه التجريدات لأمكننا تطبيق المقولات ومناهج العلوم الطبيعية في السيكولوجيا ، دون أن تفقد الظاهرة السيكولوجية طابعها الانساني ونحتفظ لهما بصفتهما الانسانية دون أن يصير العلم السيكولوجي علم الروح الموضوعية .

٣ - والصعوبة التي تكمن في أساس السيكولوجيا التحليلية والسيكولوجيا التركيبية توجد في ضرورة تجزئة الطابع الكلي الى العناصر التي يتكون منها مع المحافظة على كلية الفرد في نفس الوقت، تلك الكلية التي لا يمكن تصور الدراما بدونها . ولانصار التحليل (الى عناصر) الحق حين يؤكدون أنه يتعين على السيكولوجيا أن تتبع هي أيضا أسلوب التجزئة . ولأنصار فكرة التركيب والشكل والكلية ، الحق أيضا في رفضهم تفتيت الحياة السيكولوجية الى جزيئات من العناصر بحيث لا يمكن جمع الحياة السيكولوجية منها من جديد . ولكن يخطىء كل من الاتجاهين حين يعتقد أن المنهج التحليلي والمنهج التركيبي يجب تطبيقهما في الحياة السيكولوجية كما عرفتها السيكولوجيا الدارجة ، أعني بوصفها نتائج للنقل . واذا ما تحدد موضوع السيكولوجيا على أنه الدراما فان كلية الفرد تصبح افتراضا مبدئيا أساسيا لا يمكن ادراك أي ظاهرة أو مفهوم سيكولوجي بدونه ، وفي هذه الحالة يصبح التحليل الجزئي ليس ممكنا فقط بل وخصبا . والسيكولوجيا العيانية اذ تجزىء الدراما

تتجه الى عناصر بدورها درامية وتتضمن كلية الفرد مثلما تتضمن الظاهرة أو الظواهر المجزأة هذه الكلية ٠

٤ ـ والصعوبة فى أساس التعارض بين السيكولوجيا « الاستقرائية » والسيكولوجيا « النفاذة » (الى الاعماق) تكمن فى ضرورة الوصول الى قوانين ، وهى قوانين يجب أن تكون عامة وفى الوقت نفسه خاصة بالحياة السيكولوجية ٠ ولأنصار السيكولوجيا الاستقرائية الحق فى محاولة استخدام الاستقراء ، كما يحق لأنصار السيكولوجيا « النفاذة » أن ينكروا القيمة السيكولوجية لاستقراءات السيكولوجيا الدارجة ٠ ويخطىء كلا الاتجاهين حين يعتقد أن الاستقراء كما استخدمته عموما السيكولوجيا الدارجة هو استقراء بالمعنى الصحيح للكلمة ٠ لأن عالم السيكولوجيا الكلاسيكى يطبق الاستقراء على نتائج التحول (*) ٠ وهذا التحول يهدم الدراما ٠ ان التعميمات التى يعتقد اننا استخلصناها من الاستقراء ، صادرة فى الواقع من خطوات التحول ٠ وعلى أى حال لما كان التحول قد أزال الدراما فان الاستقراءات التى أجريت على نتائج التحول لا يمكن أن تتضمن أية معلومات خاصة بالدراما ٠ ولهذا السبب تبدو هذه الاستقراءات فارغة ٠ وبالعكس تنتهى الاستقراءات الصادرة عن الدراما نفسها الى تعميمات درامية قابلة للتطبيق على الدراما التى استنبطت منها ٠

وهذا الشرح الذى يثبت أن السيكولوجيا العيانية لا تقدم حلا وسطا ، بل تقدم تركيبا حقيقيا ليس مجرد تمرين مدرسى بسيط ٠ فالمتطلبات التى أدت الى التناقضات التى نحن بصددها حقيقية حقا لدرجة لا تسمح لنا ان نعتبرها خاطئة ، غير أن تاريخ السيكولوجيا يثبت لنا أن هذه المتطلبات غير كافية أيضا بالشكل

---

* التحول أو النقل Transposition

الذى تحققت به ، لذلك ينبغى تخطى هذه المتطلبات · فما أردنا قوله فيما سبق أننا لا نريد أن نقدم حلا من حيث المبدأ لهذا التناقض النظرى المحض ، بل نريد أن نشير الى الاتجاه الذى يوجد فيه حل واقعى للصعوبات الحقيقية ·

وعلى أى حال فاذا نجحت السيكولوجيا العيانية أينما كانت فى فرض نفسها (كجماع) فان الاضداد (اضداد الجماع) داخل الاعتراضات الموجهة الى السيكولوجيا العلمية العـادية هى من متطلبات السيكولوجيا العيانية الا أنها لم يفطن اليها بقدر كاف

وان الاصالة المميزة للظواهر السيكولوجية التى يدعو اليها أنصار سيكولوجيا الاستبطان هى فى الحقيقة أصالة الدراما ، تلك الأصالة التى ـ رغم عمليات التحول ـ يستشعرونها فى غير وضوح اذ لا يدركون طبيعتها الحقة من جراء عمليات التحول· فالسيكولوجيا كعلم « اخلاقى » geisteswissenschaftliche تطالبُ فى واقع الأمر بالعودة الى الدراما ، ولكن هذه الدراما عندهم قريبة جدا من التحول حتى أن السيكولوجيا المذكورة لا تستطيع الا ان تعتقـد بضرورة تأمين استخدام وجهة نظر الدلالة ، بأن يجعلوا من « الروح » مفهوما متضمنا فى الظواهر السيكولوجية ، بل ان الاتهام الذى به تهدم السيكولوجيا الكلاسيكية الأشكال والأبنية ما هو بدوره الا اعتراض لا زال غامضا ضد التحول المميز للميتاسيكولوجيا بوجه عام · كما أن تأكيد أولوية وسيادة الأشكال والأبنية ليس الا تأكيدا ناقصا للالزام الذى يعتبر كل الظواهر والمفاهيم السيكولوجية أجزاء من الدراما وأنها أى ـ الظواهر والمفهومات ـ يجب أن تنتسب الى حدث درامى يتضمن دائما الفرد باعتباره « كلا » · واتهـام الاستقراء بالعقم فى المجال السيكولوجى ليس فى الواقع الا لعجزه عن تطبيقه على الدراما ، واحلال « الفهم » أو « النفاذ » محل الاستدلال ليس

الا اسلوبا غير مباشر للمطالبة بأن يبدأ الاستقراء لا من نتـــائج التحول الذى أصاب الدراما ولكن من الدراما مباشرة •

- ١٥ -

وعلى أى فان السمة المميزة للسيكولوجيا العيـانية لا تتمثل فقط فيمـــا تقترح من امكان تخطى أضـــداد (الأطروحة) فى السيكولوجيا الراهنة • ولكن اذا كان علينـــا خلال تخطى هذه الأضداد أن نخترع السيكولوجيا العيانية بأكملها فسيكون لنا الحق فى أن نرتاب فيها • وعلى العكس ، فالسيكولوجيـــا العيانيـــة لا تحتاج أن نخترعها بأكملها فقد سبق أن تحققت بصورة جزئيـة ولكن كان ينقصهـا الثبات consistence والتماسك cohérence اللذان ينتجان عن طريق التصفية النهـــائية للميتاسيكولوجيا • وابراز الالهام الفكرى الجديد ذلك الالهام الذى يمكن فى ظله احداث هذه التصفية •

فما نسميه بالسيكولوجيا العيانية ليس فى حقيقـــة الأمر الا هذا الالهام الجديد الذى يسيطر سيطرة فعالة على بعض البحوث التى تمثل على مستوى الابحاث الوضعية نفسها قطيعة بينه وبين الميتاسيكولوجيا كلها ، كما يمثل فى نفس الوقت عودة للتراث الدرامى • فليست بنا حاجة اذن أن نخترع ، من الألف الى اليـاء تنظيما كاملا لمناهج المعرفة العملية ، بالانسان • فذلك ما تقوم به فعلا منذ مدة السيكولوجيا الصناعية • والمطلوب هو معاونة هذه البحوث بالذات لكى تعى تماما بنفسها • وواجبنا أن نشير الى أن هذه البحوث ليست علوما مســـتقلة ولا هى أجزاء خاصـــة من السيكولوجيا الدارجة لأن الأشكال الحقيقية لأى بحث علمى لا تسمح

بقيام أشكال خاطئة بجوارها ، ومن باب أولى فهي ليست أقساما منها • وينبغى أن نبين من جهة أخرى أن السيكولوجيا الصناعية والقياس السيكولوجى psychotecnique بصفة عامة لا يمثلان « السيكولوجيا التطبيقية » فما هو هذا الذى يطبقان ؟ انه لا يجوز القول ان فيزياء ديكارت هى تطبيق لفيزياء أرسطو وان العودة للشكل الحقيقى للبحث العلمى هى الجزء التطبيقى للشكل الخاطىء من هذا البحث •

وعلينا أن نبين بصفة عامة أن كل هذه البحوث تمثل بالذات استبعاد هذا الشكل من السيكولوجيا الناتج عن اهتمامات احيائية كما تمثل عودة الى التراث الدرامى مع ازالة عمليات التحول •

وعلينا أن نبين أيضا أنه لم يكن للواقعية الروحية والشكلية والتجريدية أى دور فى المعارف التى زودتنا بها الاتجاهات التى نحن بصددها ، وعندما استطاعت (الواقعية الروحية) الوصول الى اكتشافات حقيقية فلم يتم لها ذلك الا بالتحول عن هذه الخطوات والتحرر منها • وبعبارة أخرى نقول أن هذه البحوث التى تمثل العودة الى التراث الدرامى ينبغى أن توضع من الآن فصاعدا فى بؤرة الاهتمامات النظرية للسيكولوجيين المستغرقين تماما للآن فى البناء المركزى للميتاسيكولوجيا •

- ١٦ -

من كل ما سبق يتضح أن السيكولوجيا العيسانية يصعب « تفنيدها » بطريقة مدرسية بحت ولكى يمكن تفنيدها ينبغى أن يبين أنه لم يحدث أى انتقال من الاهتمامات الدرامية الى الاهتمامات

الاحيائية وان عالم الظواهر السيكولوجية لا يستدعى تحول الدراما وأنه ليس ناتجا عن الخطوات الثلاثة التى وصفناها أو ـ اذا اعترف بوجود التحول ـ ينبغى بيان أن خطوات التحول شرعيه مفيدة وخصبة وأن هذه الخطوات تعطينا بالتالى معرفة دقيقة بالدراما ، وهي المعرفة التى كنا نتطلبها من السيكولوجيا منذ نشأتها ٠

ويجب علينا خاصة ـ والأجدر أن نبدأ من هنا ـ أن نثبت أن هذه الاتجاهات التى المحنا اليها قد صدرت عن التحول ، لا فى تركيباتها النظرية وحسب بل وفى سيرها نحو الاكتشافات الجديدة لأن التركيبات النظرية لا تعنى شيئا سوى تخوفها من الميتاسيكولوجيا ٠

ويكفينا هذا الالتزام لأنه يعنى أن تدور المناقشات حول الخطوات الأساسية للسيكولوجيا ذلك أنه يجب على كل نقد يدعى أنه يتناول فعلا أسس السيكولوجيا أن يستهدف الخطوات التى تهيمن على أساليب حصول السيكولوجيا على وقائعها ومفاهيمها وأن يصدر حكمه على عدد وشرعية هذه الخطوات ٠ وكل محاولة ترمى الى حل الأزمة الراهنة لا تستطيع أن تغفل مثل هذا النقد لأنه الوحيد القادر على اعطاء تعريف واضح لا لبس فيه للسيكولوجيا ٠ فاذا كانت سيكولوجيا خاطئة وجب التخلى عنها ، واذا كانت قبل علمية وجب تخطيها ٠ ويمكننا أن نحكم على كل ادعاءات اصلاح السيكولوجيا من خلال الوضوح الذى تأتى به فى هذه النقطة بالذات ٠

الباب الثاني

إلى أين تتجه السيكولوجيا العيانية ؟

لقد أثار ما عرضناه من شعارات وبرامج « السيكولوجيـــا العيانية » حتى الآن نوعين من الاستجابات لها مغزاها : الأولى ، المقاومة السلبية والثانية التسابق على دراسة السيكولوجيا العيانية أما الاستجابة الأولى فتثبت لنا أن أشد النقـــاد تحـــاملا على السيكولوجيا الكلاسيكية مازالوا يناصرونها • والاستجابة الثانية تثبت أن السيكولوجيا الكلاسيكية تأمل مرة أخرى فى انقاذ نفسها بتغيير لغتها •

والاستجابتان تثبتان معا أن ارادة التجديد عند السيكولوجيين أقل جدية واخلاصا مما توحى به تصريحـــــاتهم وان هذه الارادة لا تعدو أن تكون أمرا ينحصر فى حدود بعينها متفق عليهـــــا فى الأساس رغم كل اختلافاتهم ، وهى حدود يعجز معظم السيكولوجيين عن تخطيها مهما أدى ذلك الى اندثار السيكولوجيا توا ، وهذه الحدود هى التى تجعل « حل الأزمة » و « التجديد » موضوعات أكاديميـــة صرفة تقبل المناقشة الى ما لانهاية •

فالواجب اذن أن نكشف عن الطبيعة الحقيقية لهذه « الحدود » ولكى يتم ذلك علينا أن نتجنب استخدام الرطانة السيكولوجيـــة

التكنيكية وأن نسقط من حسابنا الخلافات القائمة بين الاتجاهات المتنافرة فى الظاهر المتشابهة فى الواقع ·

وهذه الاتجاهات كلها متشابهة ومتفقة فيما بينها وجميعها مثالية ، ونحن نشاهد اليوم فى السيكولوجيا انصهار كافة هذه الاتجاهات فى المثالية · وقد نتج عن الحركة الكبيرة للسيكولوجيا الوضعية : انصهار مثالى كبير ومثالها السيكولوجيا اللاهوتية البرجسونية فى فرنسا ، والسيكولوجيا بوصفها علما «اخلاقيا» (١) والميتافيزيقا المثالية المتمثلة فى المذهب المعروف ب « وحدة الجسم والنفس » (٢) فى المانيا · ولا زال التحليل النفسى بعد انشقاق يونج وآدلر ـ وهما أكثر مثالية من فرويد ـ مستمرا فى تفتته وينتهى الى محاولات أكثر مثالية كتلك التى يذهب اليها « رانك » أما السلوكية بالمعنى الدقيق النابعة من اتجاه مادى فقد عجزت منذ البداية عن الثبات فى طريقها الخاص ، وتولد عنها مختلف اشكال السلوكية غير الفسيولوجية ، وكلها مثالية بدرجة أو بأخرى ·

وهكذا يبدو لنا أننا أمام اعتراف عام من السيكولوجيين « بالخطيئة » وتنافس على الطنطنة فى العودة الى المثالية ·

وخير دليل على ذلك هو « السيكوتكنيك » (القياس السيكولوجى) الذى لم يكن لديه أى مبرر « تكنيكى » يدفعه الى المثالية بل ان لديه كافة الأسباب التى تجعله غير مثالى ومع ذلك فان نظرياته تزخر بالمثالية · وعجز السيكولوجيا الحالية ليس مع ذلك الا عجزا علميا للمثالية · والسيكولوجيا من حيث أنها « علم الروح » يمكنها أن تبيح لنفسها أن تكون مثالية · وأن تكون فصلا من اللاهوت واداة للسيطرة والسيادة وليس هذا هو الحال مع

---

(١) Geisteswissenschafliche Psychologie — انظر هامش ص ٢٣

(٢) Leib-seele-Einheit

السيكولوجيا كعلم التى يجب أن تهتم بالظواهر الحقيقيـــة والتى لا يمكن الا ان تكون مادية ٠

فهناك اذن أزمة فى السيكولوجيا ٠ ولـكنها أبسط وأوضح مما نتصور وتتمثل هذه الأزمة فقط فى أن السيكولوجيا مثاليـة فى الوقت الذى ينبغى أن تكون فيه مادية (١) ٠ وبعبارة أخرى يود المثاليون أن يقوموا بوظيفة الماديين، ولن يمكن للسيكولوجيا أن تصبح علما الا بالتخلى عن المثالية فى حين يعجز السيكولوجيون المعاصرون عن التخلى عن المثـالية ٠ وهذه الأزمة حقيقـة بالنسبة للسيكولوجيا العلمية نفسها ٠ فالمحاولات الأكثر خصوبة انما هى ذات اتجـاه مادى ٠ فهى توصل السيكولوجيا بالفعـل حتى آخر حدود المثالية ، غير أنها لما كان سندها النظرى لا يعدو تلك الأشكال الناقصة للمادية ، التى لم تعد اليوم الا ملجأ للمثالية فان المثالية تتغلب من جديد وتصيب بالعقم أفضل المحاولات ٠ وهذا أمر طبيعى بالنسبة لارتبـاط السيكولوجيين من حيث أصولهم وتراثهم وكل نشاطهم الخـاص والمهنى بالايديولوجية البورجوازية ٠ وهـذا هو السبب فى أن السيكولوجيين لا يرون سوى هذه الأشكال الناقصة من الماديةالمسموح بهارسميا لهذا السبب، مثل مادية الفسيولوجيا والطب ٠ وهـذا هو السبب فى أن جهل السيكولوجيين بالشكل الكامل للمادية انما هو بالقياس اليهم مسألة « مزاجية » ٠ وتولد عن ذلك التناقض بين ما يتضمنه تحويل السيكولوجيا الى علم وبين ما تدعو اليه « أمزجة » الفلاسـفة البورجوازيين أو الأطباء « ذوى المـادية المزيفة » من السيكولوجيين (٢) وكانت النتيجـة أن ظلت السيكولوجيا جامدة فى مكانها ٠

---

(١) لايخفى على القارىء الطابع الماركسى فى هذا النقد ٠ (المراجع)

(٢) تشير هذه العبارة الى الاتجاه السائد لدى علماء النفس فى فرنسـا الى دراسة الطب ٠ (المراجع)

والسيكولوجيا العيانية هى بالذات السيكولوجيا التى تلغى كل أثر للمثالية فى علم النفس • وهى السيكولوجيا المادية التى تتخذ الموقف الوحيد القادر على ضمان مستقبل علمى للسيكولوجيا• ولكنها في الوقت نفسه ترتبط بالمادية المعاصرة النابعة من ماركس وانجلز والمسماة **بالمادية الجدلية** • وتحتاج السيكولوجيا الى مادية كاملة لا تتوافر الا فى المادية الجدلية ، واذا ما جعلنا منها نقطة انطلاق أمكن للسيكولوجيا أن تصبح علما • لذلك أحس السيكولوجيون الذين خاطبناهم احساسا عميقا بأنها هى القاعدة النظرية النهائية للسيكولوجية العيانية وهكذا لم نجد أمامنا الا المقاومة السلبية من جهة ، والتسابق على السيكولوجيا العيانية من جهة أخرى • وهل يمكن حقا أن يقبل المثاليون العمل ضد المثالية؟ ألن تسول لهم نفوسهم اقتناص هذه السيكولوجيا المعادية للمثالية بالقاء شباك المثالية فوقها، وقبل أن تفلت منهم نهائيا سطوة ماهو « عيانى »•؟

وبالنسبة للنقطة الأولى نجد التباكى على الأزمة والقاء المواعظ من أجل الوحدة وتمنى النبضة لعلم النفس ، الا أن هذا لا يعنى سوى شيئا واحدا وهو أن يذهب علم النفس الى الجحيم ولتبقى المثالية •

أما بالنسبة للنقطة الثانية فقد فات وقت الاصطياد ، وان كانت مناورة التسابق تعطينا فرصة رائعة لنبين بالضبط الى أين تذهب السيكولوجيا العيانية ، دون أن نكون ملزمين هذه المرة باستعمال اللغة الفنية للسيكولوجيا •

فمن يستطيع اذن أن يشكو من قلة الوضوح فى الموقف داخل السيكولوجيا ؟ سوف نجد من جهة هؤلاء الذين يؤيدون قبل كل شىء النظام الاجتماعى وايديولوجيته ويرفضون الاشتغال بالعلم الا فى حدودهما ، ومن جهة أخرى سوف نجد الراغبين فى القيام بأبحاث علمية بلا « حدود » أى بغير « غمامة » تحد رؤيتهم •

ورغم أنه لا يوجد تقريبا من يريد أن يعمل معنا بشكل جدى، الا أن الكل يريد الاستفادة من سطوة ما ينعت « بكلمة » عيانى ٠ وقبل أكثر قليلا من سنة كانت السيكولوجيا العيانية هى آخر ما يهتم به السيكولوجيون الفرنسيون لانشغالهم فى تدعيم الفلسفات الروحية والمحافظة على الاتجاهات المدرسية انشغالا لم يترك لهم مجالا للاهتمام بالظواهر السيكولوجية حقا ٠ ولكن الأمور تغيرت بسرعة لم يعهدها التقدم فى فرنسا منذ الثورة ٠ والتقدم الذى حدث هنا ليس هو التقدم بالمعنى العادى للكلمة ولكنه تقدم ذو أثر رجعى ٠ فقد حدثت ظاهرة مثيرة بعد أن نشرنا كتابنا الأول (نقد أسس السيكولوجيا ـ رايدر ـ باريس ١٩٢٨) الذى شرحنا فيه السيكولوجيا العيانية لأول مرة ٠ فوجدنا أشد السيكولوجيين تجريدا « يرتدون الى انفسهم » بصورة دزامية واكتشفوا فجأة انهم كانوا منذ وقت طويل أنصارا للسيكولوجيا العيانية ٠ فلقد اكتشف الجهابذة من أساتذة السيكولوجيا التجريبية انهم لم يشغلوا أنفسهم أبدا بالسيكولوجيا التجريدية ، (وهذا اعتراف منهم بأنهم لم يكونوا يدرون ما يدرسون) ٠ أما الذين لم يقوموا بأنفسهم بهذا الاكتشاف فقد تكفل به آخرون لحسابهم ، حتى أننا نستطيع القول بأنه لا يوجد فى فرنسا اليوم سيكولوجى واحد يتجاسر على التصريح بعدائه للسيكولوجيا العيانية ٠

ولو قرأنا كل الخطابات التى وصلتنا وكل ما قيل وكتب بخصوص موضوع « السيكولوجيا العيانية » لخيل الينا أن فرنسا

لم تنجب منذ فيرسانجيتوريكس (١) حتى ظهور السيد برجسون سيكولوجي « تجريدى » واحد ٠

وقد كتب لنا الفيلسوف البارع السيد « برنشفيك » ــ الذى يبدو أن السيكولوجيا تدين له بالكثير «لم أكن ابدا نصيرا لسيكولوجية القرن التاسع عشر التجريدية التى تتكلمون عنها » ٠

أما أستاذ مناهج البحث المعروف بالسوربون ، السيد لالاند ــ وهو من تدين له السيكولوجيا أيضا بالكثير ، فقد شرفنا بتذكيرنا بمحاضراته فى السوربون التى تكلم فيها عن السيكولوجيا العيانية (٢) ٠

وكتب لنا السيد « سباير » يقول « انا متفق معكم فى ضرورة البدء من العيانى والرجوع دائما للعيانى ويستطرد قائلا ولماذا لا تذكرون ٠ ان السيد لالاندتكلم منذ أمد بعيد عن السيكولوجيا التى تدرس الدراما ؟ (انظر المدخل المنهجى بالمجلد الأول من كتاب ديما) ٠ ولماذا لا تتبينون أن دى لاكروا ينطلق أساسا من الدراما فى دراساته للحياة الدينية وفى تحليله للعلاقات الحية بين الفكر واللغة » ٠

وجملة القول : كان الجميع عيانيين وما يزالون ، ولم يتحدث كل الكتاب الا عن الدراما ، ولم يوجد فى العالم الا السيكولوجية العيانية ، وان المؤلفين فى السيكولوجيا قد كرسوا دائما كل أعمالهم للسيكولوجيا العيانية ٠

---

(١) الجنرال فيرسانجيتوريكس سياسى وقائد شعب الغال فى معركته ضد يوليوس قيصر ويعتبر أول من وحد الفرنسيين ووضع اللبنة الاولى فى بناء فرنسا . (لاروس) (المترجم)

(٢) نود ان يشرح لنا مسيو لالاند هنا أو فى أى مكان آخر مفهومه لهذه السيكولوجيا آنذاك لاننا لا نتذكر شيئا من هذا القبيل . (المؤلف)

ولا شك أن التسابق على دراسة السيكولوجيا العيانية له دلالته ، وكان بامكاننا ان نكتفى بتسجيل انتصارنا ببضع « كليشيهات » تقليدية مناسبة « السيكولوجيا العيانية ضرورة لعصرنا » • « لقد وجدت السيكولوجيا العيانية بحالة كامنة من قبل عند « اسلافنا » « لم تكن السيكولوجيا تحتاج الا للوعى بكيانها » • « لقد نلنا شرف التعبير عن زماننا » • وكان فى امكاننا أيضا أن نكتفى بتبادل التهانى المألوفة فنشكر الذين فهموا مقاصدنا • أولئك الذين منحونا شرف أننا فهمناهم فحسب • ولو كنا فعلنا ذلك لتحولت السيكولوجيا العيانية الى نوع من « البقدونس (١) » ؟ واعتبرنا أنفسنا سعداء بافتتاح « مطعم جديد » فى ميدان الفلسفة •

الا أن هناك ثمة سببان يدعواننا الى أن نكون أقل سذاجة وأكثر تشددا • فلدينا فكرة عن مدى الصدق وكذلك عن الطابع الحقيقى لثمن هذه الانتماءات العيانية • كما أننا أبعد من أن نكون قد توصلنا الى التعريف الدقيق للاتجاه الحقيقى لما نسميه بالسيكولوجيا العيانية وليست لدينا الشجاعة ولا الرغبة فى أن نقود كل الذين يريدون الالتحاق بركبنا فى طرق لا يعرفون هم الى أين تسير • وخاصة أن بينهم أشخاصا يفوق حظهم من التوقير فى النفوس حظنا منه •

ولدينا احساس بأنه بعد التوصل الى هذا التعريف الدقيق سوف تقل المعارك الدائرة حول العنوان ، وسوف يتوقف التسابق على السيكولوجيا العيانية • وعندئذ سوف يتحول « البقدونس » الى سم فى أفواه الذين تعجلوا التهامه •

---

(١) tarte à la crème عبارة فرنسية دارجة لشيء الى ما يتكرر استخدامه او الحديث عنه فى كل مناسبة بغير تمييز . (المراجع)

- ٢ -

لقد شاهدنا طوال نصف قرن المنظر التالى : لا يوجد سوى التنظيم اللاهوتى (١) المدرسى للروح فى مجال التعاليم النفسية . اليس معنى السيكولوجيا هو (علم الروح) ؟ والروح أداة لاهوتية: ولو لم يكن هنـاك اناس لهم روح ـ على رأى أهل اللاهوت ومن يخدمون مذهبهم ـ لما أمكن الاحتفاظ بفكرة الروح ، ولكان الذين ينفخون نيران الروحانية ينفخون فى رماد . أما بالنسبة لكلمة «علم» فهى لا تعنى هنا معرفة ولكن تنظيما عقلانيا : ترتيبا مظهريا محلقا وغالبا هستيريا وخاصة بالنسبة للروحانيين المضطربين أمثال السيد برجسون . فتعريف علم النفس بأنه علم الروح هو تعريف يفضح نفسه بنفسه .

ولكن جاء عصر العلوم الطبيعية واراد علم الروح ان يصبح علما طبيعيـا ، فارتدى رجال اللاهوت الملابس البيضـاء وأخفوا القديس توماس (الاكوينى) فى اسطوانات التسجيل . وما دام العصر قد أصبح عصر التصريحات الوضعية وانشاء المعامل ، وحلت تعبيرات « الحساب » و « القياس » محل عبارات « الروحانية ذات الحرية والخلود » قرر رجال اللاهوت أن يدخلوا المعركة بهذا الجزء من قواتهم التى عرفت فيما بعد باسم السيكولوجيين التجريبيين أو العلميين ... الخ ولم يكن ما يهمهم هو التمسك بالألفـاظ بل انقاذ المضمون ، وعلى عكس ما نظن كان هذا « تكتيكهم » الحقيقى . ، بل كان أيضا قانون تطور السيكولوجيا خلال الخمسين او الستين عاما الماضية : تغيير الشكل لانقاذ المضمون .

(١) لا يخفى على القارىء ما درج عليه الماركسيون من استخدامهم لكلمة « اللاهوت » بغير تمييز فى نقدهم لبعض المذاهب الفلسفية والعلمية والاجتماعية . (المراجع)

فليس كل من ارتدى رداء الكهنوت بكاهن ، ومن هنا يمكن للكاهن أن يتخلى عن مسوحه البنى اللون ويستبدل به رداء أبيض ويظل رغم ذلك كاهنا • اذ لما كان المضمون فى خطر فلا يهم تغيير الشكل ؛ وعلى الأصح كان اهم شيء بالنسبة لهم هو تغيير هذه الواجهة فقبلوا كل أشكال الاخراج وعلى أى صورة من الصور • فاذا احتاج الأمر الى التنكر فى شكل علماء فسيولوجيا فلا مانع ، ولو استدعى الأمر أن يتحولوا الى غدد صماء فلا مانع •• وهكذا أثبت رجال اللاهوت انهم أحذق من صنائعهم دكاترة الطب والعلوم فعملوا على انجاح كل هذه الكرنفالات الهزلية للأطباء الفلاسفة والقصاصين الفسيولوجيين لأنهم لم يكونوا يؤمنون بنجاحها الحقيقى • وهم يعلمون جيدا ان فى مقدرتهم ان يستمتعوا بشكل دورى بواسطة صنائع أخرى مثل السيد برجسون بلذة الادانة العلنية لعجز هؤلاء الذين لم ينتابهم العجز الا لأنهم كانوا فى خدمة اللاهوت •

ولقد تعود الحفاظ على لاهوت الروح ان يتابعوا تقلبات الحركة السيكولوجية خطوة خطوة • فكل ما ينقذ لاهوت النفس يكون حسنا وسيكون كل شيء حسنا أيضا فى المستقبل طالما كان ما يقدمونه من اختراعات جديدة ملائما لذوق العصر ولقد أثبتت الكنيسة دائما أنها تتمتع بحاسة تجارية مرهفة • كما استطاعت دائما أن تعرض بضاعتها بالاسلوب المناسب • فقد بحثت دائما عن الشكل الذى يفتن الجمهور لتقدم به بضاعتها القديمة وهذا هو بالدقة نفس التكتيك الذى تتبعه مع السيكولوجيا العيانية • فالسيكولوجيا العيانية ينبغى الا تكون غير مرحلة جديدة ، حلقة جديدة فى السلسلة القديمة • فهم يتصورون أن « العيانى » هو « موضة العصر » ولذا فقد تبنوا الاسلوب العيانى • لأن هذا هو مطلب اليوم وهم يتمنون ان تكون محاولتنا للتصفية النهائية لسيكولوجيا الروح (ضعيفة المفعول شأنها فى ذلك شأن المحاولات السابقة) • فهم

لا يريدون أبدا أن نكون موردين لصنف جديد ، أما اذا اقتصر الأمر على تغليف البضاعة وتسليمها فلا مانع لديهم من اعطائنا هذا الحق على أن يظلوا هم أصحاب الامتياز •

لذلك يقول الجميع انهم متفقون معنا « من حيث المبدأ » ولكن ما هو هذا المبـــدأ فكل واحـــد يريد أن ينسب لنفســـه اسم « السيكولوجيا العيانية » لأن كل واحد يريد أن يبدو هو المنقـذ للكنز القديم ، والكل يطالبون باطلاق هذه التسمية على لاهوت الروح العجوز الذى يرغبون جميعا فى انقاذه • وكل ما يطمع فيه أى واحد منهم هو أن يعترف له بأنه صـــــاحب الفضل فى ذلك أكثر من الآخرين •

أما البعض الآخر فيتصور أنه أكثر مهـــارة وحذقا وهم فى الواقع مجرد سذج ان لم يكونوا شرا من ذلك • فعلى سبيل المثال قال لنا السيد « برنشفيك » لكى يبرر موقفه أنه كان دائما مناصرا ل « مين دى بيران » • ولما كنا قد جعلنـــا من الدراما موضـــوعا للسيكولوجيا العيانية قال لنا السيد سباير « تقولون مثـلا انكم لا تعرفون معنى الحدس ، والحدس هو « الحدث » الحاسم فى دراما البحث الصوفى والفلسفى والعلمى والفنى » • وهكذا حلت البركات على الجميع : « فقد بدأ برجسون بالتأكيد من ظاهرة « درامية » حين جعل الحدس أساسا لمذهبه » • أما السيد سبير فيأخذ علينـا فهمنا الضيق للعيانى • اذ أن العيانى فى الواقع يجب أن يكون الاطار الجديد الذى يتحتم ان يدخل فيه الآن المذهب المدرسى ذلك لأن «فى أعماق كل دراما بلا استثناء نجد دائما « الكليات » (الفلسفية) (١) فالانسان تحركه دائما أفكار واتجاهات وعواطف وعقد أى يتـأثر بهذه الكليات • وهذا يعنى أننا سنواصل الاشتغال بالسيكولوجيا الكلاسيكية وان كنا سنسميها دراما • وسنحتفظ بنظرية الروح

(١) الكليات Les universeaux عند المدرسيين هى المعانى المجردة : الجنس والنوع والفصل الخ • (المراجع)

بأكملها ولكننا سنسميها « نظرية عيانية » ، وهذا كل ما فى الأمر .
ففكرة السيكولوجيا العيانية ليست لها هنا الا أهمية ضئيلة ، الشيء الأساسي هو أن لدينا احساس بأن العياني هو « الموضة » ولهذا يعلن الجميع انهم متفقون من حيث المبدأ . وهذا طبيعي طالما أن الجوهر لم ولن يتغير . هذا هو لب الموضوع . فلو أننا دعونا الى سيكولوجيا « مائية » بدلا من السيكولوجيا العيانية ولو استبدلنا « الدراما » « بالطريق اللبنى » (١) La voie lactée موضوع للسيكولوجيا لقال الجميع اشياء مماثلة ، وذلك بشرط أن تكون السيكولوجيا المائية هي « الموضة » .

ولقال لنا السيد « برتشفيك » عندئذ « لقد كنت دائما مناصرا لهذه السيكولوجيا المائية التى تتحدثون عنها . وهكذا أحببت دائما « دى بوسى » (٢) .

ولكانوا قد ذكرونا أيضا بمناهج السوربون ـ فى أيام دراستنا ـ حيث تعرضوا للسيكولوجيا المائية . وهل هناك موضوع لم تطرقه مناهج السوربون ! .

ولعبر لنا حينئذ السيد سبير عن نفسه قائلا « أوافقكم على ضرورة البدء بالسيكولوجيا المائية .. ولكنكم تقولون مثلا انكم لا تعلمون ماهو « الحدس » ؟ أليس الحدس هو « الفعل » المبدئي لهذا

---

(١) الطريق اللبنى اصطلاح فى علم الفلك يطلق على تلك المجموعة من النجوم التى تنتمى اليها المجموعة الشمسية . وتتجمع النجوم عادة في مجرات تتألف كل منها من بلايين النجوم التى تتحرك وتظل معا كوحدة واحدة . وتوجد غير مجرتنا المعروفة باسم الطريق اللبنى مجرات أخرى تسبح في الفضاء كأنها سحب مضيئة وهى ما نراه من سطح الارض كسحب باهتة في السماء أثناء الليل. ويقدر عدد هذه المجرات بنصف بليون مجرة (المترجم)

(٢) دى بوسى : ١٨٦٢ ـ ١٩١٨ مؤلف موسيقى فرنسى له مقطوعة أوركسترالية شهيرة اسمها « البحر » تأثر فيها بأصحاب المدرسة الانطباعية فى الرسم . (المترجم)

« الطريق اللبنى » والناتج عن البحث العلمي والفلسفي والصوفي والفني ٠

سيحاولون انقاذ السيكولوجيا الكلاسيكية ومعهـــا لاهوت الروح باسم المائية والطريق اللبنى ٠

وحين يقولون لنا « نحن متفقون على المبدأ ، أما من حيث ٠٠ » فهم يعبرون لنا بوضوح عن حقيقة نواياهم ٠ وحيث انهم جميعـــا متفقون فيما بينهم فانهم يعتقدون باستحالة وجود أي خلاف حقيقي، وحيث أنهم جميعا اتباع مخلصون عن وعى أو عن غير وعى بفائدة أو بغير فائدة للاهوت فلا يمكنهم تصور فكرة وجود سيكولوجيـــا لا تخدم اللاهوت ٠ وكأنما يريدون أن يقولوا لنا : يجب أن تكونوا متفقين معنا فى الجوهر فلا تحاولوا الظهور بعكس ذلك ٠ ولا تثيروا المشاكل فخير الأمور الوسط ٠ وان تصريحاتكم تعد انذارا يدعونا لتغيير لغتنا وسنفعل هذا بكل سرور ، فنحن متعودون على مغامرات الاصطلاحات وذلك ـ بعد ـ يجدد لنا شبابنا ٠ ولكن لا داعى لتعدى هذه الحدود ولا داعى للمبالغة من ناحيتكم ٠ ولتكتفوا بالنجاح الذى نمنحكم اياه حتى يحين الوقت ـ بعد أن تكونوا قد دافعتم عنا دفاعا مجيدا ـ ويصبح عليكم أن تناضلوا مع من سيدافع عنا خيرا منكم ٠ هذا هو هدفهم ، وتلك هى المسألة الرئيسية فى هذا الجدل ٠ غير أنه لم يعد للتراث الخالد السيطرة على كل الناس ٠ ونحن نعتقد أنه تقع على عاتق السيكولوجيا الجديدة مهمة أخرى أفضل من انقاذ اللاهوت ، وأن السيكولوجيـــا العيـــانية ليست ببساطة غلافا للسيكولوجيا الكلاسيكية ٠

- ٣ -

اذا كان هناك تراث عظيم تنتمى اليه السيكولوجيا العيانيـة فهو التراث المادى قطعا ٠ فهو يرمى الى ان تكون السيكولوجيا بدون

« حياة داخلية » (١) ، خصوصا عندما يتعلق الأمر بالعمليات processus ، فهو لا يعترف بأية عمليات خارج نطاق العمليات المادية . ويهدف النقد الذى يقوم على اساسه الى اثبات الطابع الاسطورى لمذهب « الحياة الداخلية » . ويدور مشروعنا كله حول المطامح الكبرى والاساسية للمادية فى السيكولوجيا : فالسيكولوجيا العيانية والسيكولوجيا المادية هما بالنسبة لنا مترادفان ، كترادف السيكولوجيا الوضعية والسيكولوجيا العيانية تماما .

غير أنه لم يعد من الممكن ان نكتفى بوصف السيكولوجيا « بالوضعية » ، نظرا للظروف الراهنة فى السيكولوجيا . فكل السيكولوجيين ايا كانت اتجاهاتهم ينسبون الوضعية لأنفسهم . فيتصور انصار النظرية الفسيولوجية القديمة انهم يحتكرون الوضعية باسم اجهزتهم القياسية ومتوسطاتهم الاحصائية ، وانصار السيد برجسون يدعون انهم اصحاب وضعية « ارقى » ، ناتجة عن تقلصاتهم الحدسية . وكما اعتبر استخدام الادوات المعملية فى الفسيولوجيا فى القرن الماضى انتصارا للوضعية ، فها هو «الاعتراف بالطابع النوعى للظواهر السيكولوجية » يعتبر اليوم انتصارا آخر للوضعية . وقصارى القول انه حتى لو عاد القديس توماس الى الأرض من جديد فلن يتردد بدوره فى أن يفرض علينا سيكولوجيته باسم الوضعية . ومعنى هذا أن الوضعية فى مجال السيكولوجيا قد صارت مجرد عنوان متعارف عليه ، بينما غرق معناها الأساسى تماما فى المجادلات وفى مطالبة الجميع بها شكليا . لذلك كان من الضرورى نسيان كل الفروق الطفيفة والارتفاع فوق كل الاتجاهات وأن نرجع الى المفهوم البسيط للوضعية ، وأن نذكر ما نسيه الجميع

---

(١) المقصود بـ « حياة داخلية » ما كان يذهب اليه بعض الميتافيزيقيين من وجود حياة داخلية بما هى « جوهر » مستقل . (المراجع)

فى خضم المعركة وهو ان العلم الوضعى يجب أن يدرس الظواهر الحقيقية . وكان ينبغي اذن تصفية كل الاعتراضات التى ظهرت فى المعركة السيكولوجية الى التعارض الحقيقي الوحيد وهو التعارض بين السيكولوجيا التى لا موضوع لها سوى الاسطورة والسيكولوجية التى موضوعها الظواهر الحقيقية . وهذا هو المغزى الأول للتعارض بين السيكولوجيا العيانية والسيكولوجيا التجريدية . ونحن عندما تستخدم تعبير سيكولوجيا عيانية فانما نريد فقط ان نسجل فى مقدمة برنامج السيكولوجيا الضرورة الملحة اليوم وهى الاهتمام بالحقائق .

ومن هنا نرى ان المطلوب هو اختراع « سيكولوجيا جديدة » فالسيكولوجيا العيانية ترتبط ببساطة بارادة هؤلاء الذين يطالبون أو طالبوا بسيكولوجيا يمكنها أن تكون علما لا أن تكون عرضا على المستوى اللاهوتى ـ الدوجماطيقى لما يجب أن يؤمن به « الشعب » ليظل النظام الاجتماعى قائما . وهى تؤكد هذه الارادة فى هذه النقطة الهامة وتبين وسيلة تحقيقها .

وكان من الممكن ان نكتفى بتعبير السيكولوجيا المادية ، لو أن السيكولوجيا المادية كانت شيئا جاهزا ولم تكن شيئا يطلب انجازه هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فلسنا بصدد تعزيز ما يقصد عادة بكلمة المادية فى السيكولوجيا ، اى السيكولوجيا التى تنحو نحوا ماديا matérialisante وهى ليست مادية matérialiste بالفعل (المادية المبتذلة) فنحن لا نعمل اليوم على احياء هذه المواقف الناقصة ، فى مواجهة الهجوم الحالى التى تقوم به الروحية والمثالية بعامة ، فقد استخدمت تلك المواقف فى لحظة ظهورها كوسائل للتعبير عن المقاصد المادية ولكنها كانت عاجزة فى الواقع عن هدم صرح الروحية وأصبحت اليوم مادية « تعبيرية » démonstratif

تتبث الروحية عن طريقها مناعتها وعدم قابليتها للهزيمة . فالأمر يتعلق هنا بأشكال المادية التى لم تعد تمثل سوى المكمل الرسمى للروحية وتقوم بدور الممثل المساعد فى كوميديا السيكولوجيا . فالمادية الكاملة والعلمية بالفعل هى شىء آخر غير مادية الفسيولوجيين والأطباء ذات النقد الساذج . ويقتضى تحقيقها فى السيكولوجيا تغيرا جذريا فى الطريقة التى تصاغ بها المشاكل الرئيسية وكذلك فى الوسائل المستخدمة فى حلها .

فما هو الطريق الذى تسلكه المادية التقليدية فى مجال السيكولوجيا ؟ انها تحاول ان تفسر الجوانب « الروحية » بواسطة المادة : الجهاز العصبى ، والاحشاء والغدد الصماء والكائن العضوى ككل ، وتلك أكثر الطرق كلاسيكية . ولكن لم تتمكن أى من هذه المحاولات أن تصل الى هدفها ، فقد اضطرت منذ البداية أن تعهد بكل شىء الى التحسينات المقبلة فى وسائل البحث العلمى ، وان تكتفى باختراع روايات لم تؤد الا للعودة الظافرة للروحية ، وبهذا تأكدت الاسطورة القائلة بأن السيكولوجيا لن تقوم لها قائمة بدون الروحية . ولقد كان الفشل المتكرر للسيكولوجيات المستوحاة من المادية يرجع الى النقص الأساسى فى الوسائل المتاحة للمادية التى يستوحونها . ذلك لأن المادية الطبية أو الفسيولوجية أو البيولوجية ليست الا رد فعل سلبى فى وجه الروحية : نفى هو نظير تام لتأكيدات الروحية : لقد صبت المادية القديمة فى قالب الروحية. فهى تقبل الأسلوب الذى تستخدمه الروحية فى تحديد موضوع السيكولوجيا ، وتثير نفس القضايا ، وهى ببساطة تسمى «مادة» كل ما كانت الروحية تسميه روحا ، كما لو كانت ثلاجة كهربائية تحتفظ بالروحية . وجوهر المسألة هنا أن « الروحى Le spirituel وكل التنظيم المدرس للروح l'âme أشياء يؤخذ بها بوصفها مهمة ملزمة — على أى حال — بشىء ما قد لا يعدو الغطاء مع وضع لوحة

تذكارية فى الجهـــاز العصبى لهـــذا الذى الغى • ومن ثم ظلت السيكولوجيا أسيرة هذه المعارضـــــة التى لم تنجح حتي اليوم فى الخروج منها لأنها اكتفت بالبحث عن صورة الأطروحة فى نقيض الأطروحة ، وهذا المنهج غير جدلى ، فالتعـــارض هنا بين المادة (الروحية) والمادة (الفيزيائية) ، أما أشكال التفكير المستخدمة فى كل من الحالين وكذلك الاهداف فلا تزال مشتركة بينهما فليس لدى الروحانيين والماديين القدماء سوى خطة معركة مشتركة ووحيدة لأن كلا منهما يستخدم نفس العتاد الشكلى •

ولكى يتم اصلاح السيكولوجيا حقا كان يتعين بالذات مهاجمة هذا العتاد الشكلى وتدمير خطة المعركة السابق ذكرها • وكان ينبغى أن يوجد نقد للشكل يصيب كل هذا التأكيد والنفى فى صميمه بدلا من النقد المادى الذى الغناه فى الكتابات السيكولوجية خلال نصف القرن الأخير والذى اكتفى باحلال النفي محل التـــأكيد والعكس بالعكس • كان علينا ببساطة أن نتناول نظام الروح كمذهب وأن نفحص تركيبه قبل أن نندفع فى أى ترجمة حرفية أو ما يشبهها • وهذا بالضبط ما نويناه ، ولما كان مثل هذا النوع من النقد لايوجد تقريبا ، لهذا ينبغى لنا أن نبتكر جهازا تكنيكيا خاصا نرى أنه ضرورى حتى يظهر فى الافق شىء جديد •

وبهذا نكون قد توصلنا الى ثلاثة أشياء :

١ ــ ان الروحية تعمل بشكل منتظم بواســطة عدد من الاجراءات الذهنية المستخدمة فى اختلاق ظواهر الروح •

٢ ــ ان هذه الاجراءات الذهنية ليست أشكالا لاغنى عنها للفكر فى أى تصور للواقع تتناوله السيكولوجيا ولكنها تخدم أهداف التحول المستوحاة من مصالح لاعلاقة لها بتاتا بالعلم ولا باحتياجات الشرح والتوضيح عموما •

٣ ـ اننا لن نتغلب على الروحية عن طريق الترجمة الحرفية ولكن بازالة الاجراءات الذهنية التى تؤدى اليها ٠

وبعبارة أخرى فانه يتضح لنا بفضل هذا النقد الشكلى ، يتضح بكل دقة وفى بعض الاحيان بدقة متناهية ان السيكولوجيا الكلاسيكية هى أسطورة متميزة بمعنى الكلمة ٠ ويتضح لنا أيضا فى نفس الوقت أن الوضع الابتدائى للمادية القديمة خاطىء كذلك ٠ فمن العبث اذن ان نحاول تحويل الاسطورة الى شىء مادى لكى نقضى عليها فى النهاية باسم العلم ، فى حين أنها تفقد كل ميزة علمية متى أوضحنا طابعها الأسطورى ٠ الا أنه كان ينبغى أن يكون هذا التوضيح حقيقيا ، كان ينبغى وصف وتعيين الاجراءات الذهنية التى تكلمنا عنها ؛ ولما كان طابعها الاساسى يكمن فى ظاهرة ان كل ما هو انسانى عبارة عن تجريد منظم للاحداث الانسانية ، فلكى نستطيع اختزالها الى عمليات فقد جمعنا كل هذه الاجراءات تحت اسم عام هو التجريد ٠ ويتضح من ذلك اننا لا نقصد هنا فقط تلك العملية المبدئية التى يسميها المنطق الكلاسيكى بالتجريد ٠ وقد التبس على البعض نقدنا للتجريد السيكولوجى بنقد التجريد المنطقى ٠ لذلك اعتقد البعض انهم واجهونا بحجة دامغة عندما قالوا انه لا يمكن وجود علم دون تجريد وان السيكولوجيا العيانية يجب أن تستخدم التجريد هى أيضا والا تخلت عن كونها علما ، وأصبحت بالتالى خاطئة فى جوهرها ٠ غير أن هذا خلط مقصود ومغرض ٠ فنحن نتكلم عن نوع معين من التجريد عرفناه ٠ فنقدنا للتجريد ليس شكليا فى عمومه ولكنه شكلى بالنسبة لعلم النفس ٠ اما من حيث المنطق عامة فقد سبق أن حددنا اننا نقصد التجريد الذى لا يتناول الا العمليات الذهنية حيث الأمر أمر بشر يعيشون ويعملون ، ذلك التجريد الذى عندما يواجه واقعا ، يهجر باسم ضرورة التعبير عن نفسه عن اللحظة

المكونة لذلك الواقع وهكذا فان الاعتراض الذى نتكلم عنه لايستطيع أن يصيبنا الا اذا كنا نقصد بالسيكولوجيا العيانية نوعا من الهوس « بالمباشر » ، والا اذا كان طموحنا قاصرا على الاشتراك فى الجدل العاطفى والمنافق ضد « المفاهيم » بشكل عام . ولكن السيكولوجيا العيانية ليست رومانتيكية جديدة وانما هى عدوة للتجريد حسب ما سبق ان عرفناه ، وعدوة أيضا للمفاهيم الاسطورية للسيكولوجيا الروحية .

وحينما عرفنا السيكولوجيا التجريدية بأنها السيكولوجيا الناشئة عن لاهوت الروح، وحينما واجهناها اختصاما بالسيكولوجيا العيانية ، فاننا لم نعد أن قمنا بصياغة نتائج النقد الذى وجهناه حسب منهجنا ، اذ أن هذا النقد لم يكن موجها **للقضايا بل لبنائها** وهذا هو السبب فى أنه لم يقصد مخاصمة القضايا التى يدافع عنها طرفا المخاصمة بل **الأوضاع** التى ولدت تلك القضايا . فالتعارض بين السيكولوجيا الروحية والمادية على النحـــو الذى فهم به هذا التعارض حتى الآن يدل على وجود تناقض حول مجموعة من المسائل الكلاسيكية ، أما التعارض بين الســـيكولوجيا العيانية والمجردة فيدل على اللحظة الحاسمة فى المعركة ، وعلى النقطة المحددة التى يجب أن يستند اليها كل هجومنا على الروحية مهما كانت وكيف نتخلص منها .

فالسيكولوجيا العيانية والسيكولوجيا المادية مترادفان مثلهما فى ذلك مثل ترادف السيكولوجيا العيانية والسيكولوجيا الوضعية. وهدفنا هو استرداد وصفى « الوضعية » و « المادية » من كل هذه السيكولوجيا التى أفسدتهما بأن تحلت بهما فقط واكتفت فى نهاية الأمر بأن تحلم بالمادية والوضعية وهى لا زالت فى اطار الروحية والميثولوجية . لقد أردنا أن نبين السبيل المؤدى حقيقة الى تملك شرعى لهاتين الصفتين .

لقد كان غرضنا حتى الآن هو أن نحدد طابع مشروعنا بأن نتخطى التخطيط التكنيكى البحث الذى سرنا عليه فى الباب الأول لنبين أن نقـدنا للتجريد وحملتنا من أجل السـيكولوجيا العيانية يرتبطان أو بالأحرى يريدان أن يرتبطا بالحـركة الماديه • فـكان علينا أن نقدم هذا التوضيح الاضافى ، فيما اننا لم نتكلم الا عن التناقض القـائم بين المجرد والعيانى ولم نشر بوضـوح الى الدور الوظيفى لفـكرة الدراما فقد يظن البعض أن الاتجـاه الايديولوجى للسيكولوجيا العيانية يكاد أن يكون غير محدد • والصـيغ التى استخدمناها حتى الآن تعطى للموضوع دقة ولكنها فى حد ذاتهـا لا تستطيع أن تلزم الا الذين تحركهم مقاصد تكنيكية مخلصة ، على حين أنها تسمح للباقين من سرب الغربان ، الذين ما أن تظهر فكرة أو محاولة حتى يحوموا حولها ، ويعبثوا بها • لذلك سـاد الاعتقـاد أننا نريد بناء نظام فلسـفى « جديد » يقوم على فـكرة السيكولوجيا العيانية ، « نظام جديد » يأملون طبعا أن يكون شكلا من أشكال المثالية ، ولكننا الآن بعد أن تكلمنا عن الطريقة التى تدخل بها السيكولوجيا العيانية فى دائرة نفوذ المادية ، وعلينا أن نضيف « أننا نقصد الشكل الحديث من المـادية » تبخر فى الهواء عـدم التحديد الذى كانت المثالية تعقد عليه الآمال والذى اذا ماظهر فى محاولة علمية كان ذلك دليلا على وقوعها فى الخلط والكتابة الأدبية• وسيخيب رجاء البعض وسيقول الكثيرون أن السيكولوجيا العيانية ليست بالأهمية التى بدت بها أول الأمر ، والحقيقة أن السيكولوجيا العيانية جاءت بشىء ملفت من التجديد فى وقت وفى بلد كان ولاشك فى انتظار تجديدات ممتعة فى المجال الفلسفى السيكولوجى يفتتح بها الموسم الفلسفى القادم • لأنه رغم التهليلات الرسمية لبرجسون

والحفاوة به بمناسبة حصوله على جائزة نوبل فقد سئمه الناس في فرنسا • وكل الضوضاء التى حدثت أخيرا لا تدل الا على أنه فى طريقه الى أن يوضع فى المتحف القومى • فمن المقطوع به انه لم يعد يجتذب جمهور الأدباء ولا الفلاسفة الذين يغازلونه حتى يشقوا طريقهم الى مقدمة الصفوف • فالبرجسونية تفوح منها رائحة السهرات الفرنسية فيما قبل الحرب ، بينما أصبحت « الموضة » الآن « للبارات » الأمريكية • ثم ان التحليل النفسى أثبت للجمهور أنه من الممكن أن يتحمس الناس فى علم النفس لأشياء أخرى غير «حلوى» الحدس و «لبان» الديمومة durée • ففضل الناس عقدة أوديب والرحلة داخل السائل الرحمى (الأمينوتى) على الخرافات الهزيلة مثل « الأنا الذى يتمدد » ، ويزداد اهتمام الناس بفكرة أن سلوكهم تحدده عقد رومانتيكية أكثر من اهتمامهم بفكرة « ضرورات الحركة » التى لا طعم لها • (١)

وتضخمت الحساسية وأصبح غرق الفروق الدقيقة للمعانى فى مصطلحات اللغة قصصا تصلح للخصيان ولا يمكن مقارنتها بالملاحم الباهرة للعقد • وهكذا فقد كان من المرجح أن يرحب «بكوكتيل» فلسفى معد بواسطة التحليل النفسى وبكل ماجاءت به السيكولوجيا المعاصرة من نوادر • ولقد هللت البقرات السمان التى « لا ترتوى أبدا من الفكر والقلم » فى انتظار هذا العلف الجديد • وكادت السيكولوجيا العيانية تنتهى الى هذه النهاية التافهة • وعبر البعض أثر بعض تصريحاتنا ومواقفنا عن رأى مؤداه أننا نريد أن نسير فى ركاب «ذوق العصر» لأننا لا نقنع بالمزايا التى تعود علينا من عدم الالتزام المزيح • وهكذا يأسفون لأن علم النفس العيانى وهو النجم

(١) « الحدس » و « الديمومة » و « الانا الذى يتمدد » و « وضرورات الحركة » من المعانى البرجسونية الذائعة التى كانت تلوكها الألسن « تفلسفا » (المراجع)

اللامع فى سماء الفلسفة الادبية يتردى فى تفاهة المغامرة السياسية فهم يعتبرون الاتجاه المادى للسيكولوجيا العيانية نوعا من السياسة .
وسيقول البعض ان علم النفس العيانى لن يفلت هو أيضا من القانون المشترك بين كل العقائد « الذى يلزمها بوضع نفسها تحت حماية سلطة مادية سواء كانت الكنيسة أو حزب سياسى » .
وسيقول البعض الآخر « من المؤسف حقا أنكم تضحون بما تعد به امكانيات حركة شابة وفتية من أجل التنفيذ الآلى لبرنامج محدود الأفق » * .

وهذا كله ليس الا سحابات صيف . غير أن هناك نقاطا من المفيد شرحها . سيتساءل البعض هل السيكولوجيا العيانية ذات اتجاه مادى ؟ حسنا . ولكن ما علاقة هذا بالسيكولوجيا العلمية أو بعلم النفس بصفة عامة ؟ تقولون من ناحية أن السيكولوجيا العيانية والسيكولوجيا الوضعية مترادفتان ، وهذا يمكن فهمه . ولكنكم تؤكدون من جهة أخرى أن تعبيرى سيكولوجيا عيانية وسيكولوجيا مادية متكافئتان . أى أن السيكولوجيا الوضعية لابد وأن تكون مادية وهذا غير مقبول لأنه لا يعدو أن يكون موقفا مسبقا وانحيازا متعسفا .. الخ . « وستتوقف المسألة دائما على مزاج علماء النفس ، كل منهم على حدة » كما قال لنا أخيرا أحد علماء النفس الألمان المرموقين . والواقع أنهم يريدون أن يعتمدوا على أحد الحلين الآتيين فى ردهم علينا . أما أن تكون السيكولوجيا العيانية وضعية دون أن تكون مادية واما أن تكون مادية دون أن تكون وضعية . ولما كانت الوضعية مسألة « عامة » فان طابعها العام هذا

---

* لعل هذا ما قصده السيد لالاند عندما قال مشيرا الى فقرة من كتابنا « نقد اسس علم النفس » : « يؤسفنى أن أجد أحد تلاميذى السابقين ، وهو حاصل على الأجريجاسيون فى الفلسفة ، ينظر بجدية لهذه الفلسفة الخاصة بالاجتماعات الجماهيرية » . (المؤلف)

سيجعل المادية أيضا ضرورة عامة بينما المطلوب جعلها مسالة خاصة متعلقة بمحاولة فردية ٠ ولكن الأمر ليس بهذه البساطة ٠ فهذا العلم « الروحى تماما » الذى يأملون ـ بعد ما لحقهم من فشل ـ أن يثبتوا قبل نهاية الشوط انه من « علوم الروح (*) » مساق الى المادية بحكم أنه وضعى ، والمجال الوحيد المتاح له لكى يتخذ خط التطور الطبيعى الذى سلكته كل العلوم هو مجال المادية بالذات ٠

واذا كانت الوضعية تتجه بالسيكولوجيا بالضرورة نحو المادية ، فان هذا يرجع بشكل مباشر الى كون الشرط الأول لوضعية السيكولوجيا يتفق تماما مع الهدف الأساسى للجهود المادية فى السيكولوجيا ٠ فقد اتجهت المادية دائما فى مجال السيكولوجيا نحو سيكولوجيا بلا « حياة داخلية » ٠ فكان يتعين عليها بناء على ذلك الغاء « الظواهر » الروحية بشكل أو بآخر ٠ ومع أننا لسنا هنا بصدد الغاء الجانب الروحى لصالح المادة «الفيزيقية » الا أن اثبات الطابع الاسطورى « للحياة الداخلية » يمثل بالفعل خاتمة هذه الجهود ٠ وعندئذ لا تصبح بصدد « مزاج » فبمجرد أن نثبت أن الحياة الداخلية « خرافة » نستطيع أن نكتشف تكوينها التدريجى واساليب تغذيتها ، وعندئذ فانها لاتعود مسألة تهم العلم ، لأن العلم الوضعى يهتم بالواقع لا بتحوله الاسطورى ٠ ويمكننا أن نقول ان المادية استطاعت حتى فى أكثر اشكالها سذاجة ان تتبين من خلال تعريفها للظاهرة السيكولوجية الخطوة الاولى التى كان يتعين اجتيازها قبل أن تتمكن السيكولوجيا الوضعية من انجاز أى شىء ٠

ما هو اذن مصير الاتجاه المادى فى نقد الحياة الداخلية ، وما هى الروابط الوضعية التى تربط السيكولوجيا ـ غير المعترفة بالحياة الداخلية ـ بالمادية ؟ ستتيح لنا الأجابة على هذا السؤال امكانية

(*) انظر فى المانيا سبرانجلر وتفرعاته ٠ (المؤلف)

استخلاص الشكل الاخير للمعارضة التى عبرنا عنها في اصطلاحاتنا الفنية بالثنائى « مجرد ـ عيانى » • وهذه المعارضة صادرة من جانب السيكولوجيا المثالية من جهة ومن جانب السيكولوجيا المادية من جهة أخر

- ٥٠

تردد الكلام كثيرافى الآونة الأخيرة عن الاتجاه الايديولوجى للسيكولوجيا • فقد اتضح افلاس السيكولوجيا ذات الصبغة الفسيولوجية ـ البيولوجية ـ التجريبية ، ولذا أثير سؤال فحواه ما هو نوع الاطارات النظرية والمعارف التى يتطلبها البحث السيكولوجى ؟

ولا يمكن بالطبع ان نترك مسألة الاتجاه الايديولوجى للسيكولوجيا نهبا لمصادفات الاستلهام كما لا يمكن تسليمه ببساطة لمختلف المحاولات المثالية الحالية • فلا بد من تحديد للاتجاه أكثر جدية • ومن الجلى ان مثل هذا التحديد يبدأ حتما من طبيعةالظواهر التى تعنى بها السيكولوجيا • ويتفق وضع السيكولوجيا ، من وجهة النظر هذه ، مع وضع كل العلوم الأخرى • فتتجه الفسيولوجيا اتجاها فيزيائيا ـ كيميائيا لأن معرفة الظاهرة الفسيولوجية تحتاج الى الفيزياء والكيمياء • بيد أن تحليل الظاهرة الفسيولوجية نفسها هو الذى يبين هذه العلاقة العامة ، كما يبين المعارف الفيزيائية والكيميائية الخاصة التى تتدخل فى كل حالة •

وينطبق هذا الأمر على السيكولوجيا أيضا • غير أننا نحتاج هنا الى مفهوم واضح تماما للظاهرة السيكولوجية ، واضح تماما ووضعى تماما • ولا يمكن أن تلتزم السيكولوجيا الوضعية بتحديد

لاتجاهاتها تنطلق من تصــور غامض أو اســطورى للظاهــرة السيكولوجية ·

يقوم موضوع السيكولوجيا على مجموع الظواهر الانسانية من حيث علاقتها بالفرد الانسانى ، أى بوصفها مكونات حياة الانسان وحياة الناس · فالزواج مثلا ليس ظاهرة سيكولوجية الا بوصفه زواجا ، أى عند اتمامه فى ظروف معينة من جانب أفراد بذاتهم · غير ان الاحداث الانسانية فى حد ذاتها لها تركيبها وهى تخضـع لحتمية يجب أن يدركها العالم النفسى لكى يتمكن بعد ذلك من النظر الى نفس الاحداث فى علاقتهـا بالفرد ، وعليه أن يبحث عن هـذه المعرفة حيثما توجد بالفعل ·

لنضرب المثل بالعمل · فالعمل ليس ظاهرة سيكولوجية الا فى علاقته بالفرد ، والا أصبح ظاهرة اقتصادية فقط · ولا يمكن أن تقوم سيكولوجيا العمل الا على أساس معرفة صحيحة بالعمل بصفة عامة وبطبيعته الاقتصــادية ودوره ومكانته فى التنظيم الاجتماعى القائم·ولكن اين توجد هذه المعرفة؟لا جدوى من القيام هنا بأبحاث معتمدة فالمعرفة المطلوبة متوفرة لدى رجال الاقتصاد ، وبالذات لدى رجال الاقتصاد الذين يدرسون الاحداث الاقتصــادية بالفعل دون أن يكون همهم تبرير النظام الاقتصادى القائم أو التستر عليـه ، أى انها تتوفر اذن فى الاقتصاد الماركسى · وقد أثبت السيكوتكنيك أن سيكولوجيا العمل مستحيلة بدون الأسس التى يقدمهـا لها الاقتصاد الماركسى (١) · فطالما كانت مجرد الاكتفاء بانجاز التكليفات

---

(١) هذا ليس صحيحا · وفى العبارات التالية ينفى المؤلف ما اعلنه فى هذه العبارة ثم يعدله بوضـــوح فى صـــفحة ١١٥ عندما يقول : « نحن لا نريد أن نقول أن دور السيكولوجيا عبارة عن البحث عن التحديد الاقتصادى خلف الظواهر السيكولوجية : فنحن نقول فقط ان التحليل الكامل للظواهر السيكلوجية العسالة يكشف عن هذا التحديد » .(.. الى آخر الفقرة ــ (المراجع)

الصادرة من المؤسسات الصناعية الكبيرة والادارات العليا فان كل شيء يكون على ما يرام تقريبا . أما عندما نصبح بصدد استخلاص التعاليم السيكولوجية الصرفة من كافة أوجه نشاط القياس السيكولوجي ، أو عندما نكون بصدد الارتفاع الى مستوى الايضاح والتنظيم النظريين systématization وللخروج من فوضى الأساليب والمناهج فان المشتغلين بالقياس السيكولوجي يترددون في أحلام مثالية . ومع ذلك فان الأسس النظرية الضرورية للقياس السيكولوجي جاهزة بالفعل ومدعمة بالابحاث المادية الماركسية . الا أن المشتغلين بالقياس السيكولوجي يحلمون بسيكولوجيا حضارية مبهمة غامضة مثالية نبعث فكرتها لديهم من ظروف نشأة القياس السيكولوجي لا من خلال تحليل الظواهر نفسها ، بالرغم من اعترافهم بضرورة المساهمة من جانب فلسفة الحياة . Weltanschaunung وهذا أمر له مغزى في حد ذاته .

وينطبق ما قلناه على العمل على الجريمة أيضا . فالجريمة لا تكون ظاهرة سيكولوجية الا بوصفها أحد المشاهد الفعلية في الحياة البشرية ، لأن الذي يرتكبها فعلا فرد أو مجموعة من الأفراد . غير أن ارتكاب الجريمة فعلا من جانب فرد معين أو مجموعة من الأفراد ليس كل مافي الجريمة . وبناء عليه يجب أن يكون السيكولوجي على معرفة صحيحة بالجريمة بغض النظر عن وقوعها الفعلي . أين توجد هذه المعرفة ؟ سيقوده تحليل الجريمة ، وهي حدث اقتصادي اجتماعي (١) ، مرة أخرى الى الاقتصاد الماركسي وبالتالي الى المادية الجدلية التي لا غنى عنها في عمله الخاص ويمكننا أن نقدم اثباتا بسيطا على ذلك : لا يمكننا أن نفهم الجريمة ، شأنها شأن أي

(١) يعرف كل مشتغل بعلم النفس ان تعريف الجريمة بأنها حدث اقتصادي اجتماعي تعريف تعسفي كما يقوم الدليل على ذلك في سيكولوجية الجناح وسيكولوجية جنون السرقة cleptomania مثلا المراجع

ظاهرة سيكولوجية ، الا عن طريق مفهوم دقيق لدور السيكولوجيا أى بتحديد مضبوط للحتمية الفردية للجريمة ، ولا يمـــكننا أن نتوصل الى هذا التحديد الا بمعرفة التحديد الاقتصادى للجريمة ٠ وبدون ذلك تكون السيكولوجيا قد تعدت مجالها ، وبتعديها لمجالها تكون قد تعدت أيضا الظواهر السيكولوجية البحت (١) ٠ وهكذا فانها لا تعود تستند الى الواقع وتصبح أسطورية لأنها ملزمة بتقديم رواية سيكولوجية حيث يجب أن تصمت السيكولوجيا وتترك الكلمة للاقتصاد ٠ بعبارة أخرى لا يمكن أن توجد نظرية سيكولوجية الا فى نطاق النظرية الاقتصادية للجريمة ٠ فلن يمكننا الحديث عن مسألة الميكانيزم السيكولوجى للجريمة الا داخل اطار الميكانيزم الاقتصادى للجريمة وعندما يكون الأمر أمر ادراج الفرد داخل هذا الميكانيزم وتفسير دخوله هذا ٠

ويمكننا أن نطبق ما قلناه عن العمل وعن الجريمـــة على كل الظواهر السيكولوجية ، فهذه الظواهر ليست فى الواقع الا ظواهر انسانية من حيث أنها تتعلق بالفرد ٠ تتطلب السيكولوجيا اذن معرفة الحدود الخاصة بالظواهر الانسانية بما هى كذلك وبما هى مستقلة عن الفرد ٠ وهذه المعرفة ضرورية لكى يصبح من الممـــكن تحديد مجال السيكولوجيا وطرح المسائل بشكل صحيح وكذلك للمعرفة التفصـــيلية باتجاه وحدود ومدى الابحـاث والاعتبارات السيكولوجية ٠ بعبارة أخرى فان السيكولوجيا بأسرها لا تتحقق الا فى اطار الاقتصاد ٠ ولذا فهى تفترض توفر حصيلة من المعارف النابعة من المادية الجدلية على أن تعتمد عليها دائما ٠ وتمثل المادية بالفعل القاعدة الايديولوجية الحقيقية للسيكولوجيا الوضعية ٠

---

(١) هذا تناقض في الحد contradictis in adjecto يقوم عليه الدليل الصريح فى العبارات التالية ٠ المراجع

ويجب الا نظن أن النتائج المترتبة على مثل هذا الاتجاه للسيكولوجيا تخص العادات البورجوازية للسيكولوجيين والسيكولوجيا فقط ، أى القصور وأحادية الجانب الناتجان من كون السيكولوجيا الكلاسيكية نظام نابع من مصالح الطبقة المسيطرة ويرعاه خدامها . فهذا ليس فى الواقع سوى جانب واحد من المسألة . فمن المؤكد أن تدرج المشاكل السيكولوجية فى الأهمية والآفاق الحالية للابحاث واتجاهها واسلوب اجرائها محدود بدرجة أو بأخرى بالمصالح الطبقية . وهكذا ظلت قضايا السيكولوجيا حتى يومنا هذا مجرد اسقاط للقيم البورجوازية ، وما الاستبطان الا « التحويل العلمانى » للتأملات المسيحية . كما يقوم علم نفس الطفل على أساس أنه لا يوجد فى العالم الا أطفال البوجوازية * . ومع ان السيكولوجيا حاولت أن « تثرى » نفسها بالمنهج المقارن ، الا أن تطبيقات هذا المنهج تتعلق بقضايا وظيفية أساسا تجهل فى الواقع كل ما قد يترتب على العداء بين الطبقات من وجهة نظر السيكولوجيا التى تميل بشكل ملحوظ الى التحليق فوق هذا العداء . ومن الواضح أيضا أن العمل لم يتحول الى مشكلة سيكولوجية الا عندما أصبح الانتاج الرأسمالى فى حاجة الى استغلال رشيد للفرد فراحت السيكولوجيا تكمل فى نطاق السيكوتكنيك المهمة التى اضطلعت بها دائما : فبعد أن حولت السيكولوجيا المعتقدات التى كانت ضرورية لاستعباد.

---

* يجب ان نلفت النظر هنا الى أن علم نفس الطفل بدأ بملاحظة السيكولوجيين انفسهم لاطفالهم ، أى ملاحظات يقوم بها بورجوازيون بالغون على اطفال بورجوازيين . وعندما أجريت دراسات عامة على الاطفال ، اثيرت قضايا مجردة ليست على درجة كافية من الدقة بحيث تأخذ في الاعتبار الفروق الطبقية واختلاف الاوضاع الاقتصادية . المؤلف

الجماهير الى « طبيعة » مزيفة راحت تكتشف الوسائل التى تمكنها من استعباد الانسان تماما فى الانتاج * .

وسنشاهد بالطبع فى كل هذه المسائل تغيرات وتعديلات فى وجهات النظر ناتجة بالضرورة عن تحرر البحوث العلمية من الاغراض غير العلمية ، ولكننا لا نريد أن نتعرض لهذه التغيرات بل للطريقة التى تجعل السيكولوجيا نفسها داخلة ضمن الحتمية الاقتصادية للظواهر الانسانية ، وعلى أساس هذه النقطة سنتمكن من أن نفهم لماذا كانت السيكولوجيا العلمية مأدية قطعا .

وكما أن ضرورة اعتماد السيكولوجيا على معطيات الاقتصاد الماركسى نابعة من ضرورة المعرفة الدقيقة ببناء ووظيفة الاحداث الانسانية التى تتناولها السيكولوجيا ، فان طابعها المادى بالمثل ناتج أيضا من أن تحديد الاحداث السيكولوجية نفسها هو تحديد اقتصادى وبعبارة أخرى ليست الحتمية السيكولوجية فى حد ذاتها حتمية مطلقة فهى لا تؤثر ولا يمكن أن تؤثر الا من الداخل ، أى من خلال الحتمية الاقتصادية . وتتوقف حدود الحتمية السيكولوجية ومداها على حدود ومدى الفرد نفسه . وتكون

---

* يجب أن نقول ان أهداف السيكوتكنيك تغيرت اليوم في بعض المجالات على الاقل . وقد تحقق هذا تحت تأثير عاملين : أولهما ، قيام افراد من البروليتاريا عن طريق الاتحادات النقابية ببعض الابحاث السيكوتكنيكية لا من أجل « اخضاع الانسان للانتاج » ولكن من أجل ارشاده الى أحسن طرق تحقيقه . وثانيهما الاتجاه الجديد الذى سار فيه الماركسيون المشتغلون بالسيكوتكنيك في مجال سيكوتكنيك العمل . ومع ذلك فلا زال السيكوتكنيك يعمل في حالات عديدة في خدمة الرأسمالية الصناعية ومن أكثر نماذجها المؤسفة حقا تلك التى قدمتها ليون بوردبل وزملاؤها (أنظر مجلة la pensée العددان ٨ ، ١٠) .

هامش بقلم « ج . كانايا » الذى اشرف على نشر هذا الكتاب سنة ١٩٤٧

للسيكولوجيا أهمية طالما كانت تتناول الاحداث الانسانية في علاقتها بالفرد ، أما اذا اقتصرت على الظواهر الانسانية وحدها فانها تفقد هذه الأهمية . فلا كيان لسيكولوجيا العمل الا اذ كنا ننظر الى العمل فى علاقته بالأفراد . وبمجرد استبعاد ربط الافراد بالعمل لا يعود العمل مشكلة سيكولوجية . كذلك يكون الزواج ظاهرة سيكولوجية بقدر تفسيره لأسباب زواج فرد معين بفرد معين آخر دون أن نتعدى ذلك . وهكذا يتعين على السيكولوجيا دائما أن تتوامم مع التحديد الأساسى للظواهر التى تتناولها ، أى تحديد العوامل المادية فعلا . واذا أردنا أن نعقد مقارنة نستطيع أن نقول ان السيكولوجيا تمثل بالنسبة للاقتصاد ، ما تمثله الفسيولوجيا بالنسبة للفيزياء والكيمياء . هذا اذا كان من الممكن حقا اختزال الظواهر الفسيولوجية الى مجرد عمليات فيزيائية - كيميائية ، أى أننا باختصار بصدد علم يشكل مرحلة فى الدراسة الكاملة للظواهر التى يتناولها ، علم مكرس لظواهر لا يستطيع ذلك العلم بمفرده أن يستنفد دراستها . ولا تملك السيكولوجيا على الاطلاق « سر » الظواهر الانسانية لأن هذا « السر » لا يدخل فى نطاق السيكولوجيا . فالظواهر الانسانية تخضع لتحديد مادى وان كان هذا التحديد ليس هو المادة فحسب . ولذا فاننا نقول ان السيكولوجيا الوضعية غير ممكنة الا على أرض المادية الحديثة ، النابعة من الدراسات الماركسية .

ومن العبث أن نحاول التعرض لتحليل وعرض هذه الابحاث فى اطار هذه الدراسة الأولية « والتخطيطية » كما يقول الألمان . نحن نريد فقط أن نبرز العلاقة الوثيقة والحميمة التى تربط السكولوجيا بالماركسية ، مادامت السيكولوجيا تتناول بصفة عامة مجموع الظواهر الانسانية الحقيقية من زاوية حدوثها الفردى فقط .

وستثبت الابحاث الوضعية بشكل ملموس هذه العلاقة أكثر مما ستثبتها اى اعتبارات عامة • غير أنه لا يجب أن نتخذ من رغبتنا فى السيكولوجيا العيانية حجة للاقلال من شأن الاعتبارات العامة المذكورة • فلم يكن هدفنا فى يوم من الأيام مجرد التمسك ببعض أساليب التعبير اذا انعزلت حقا عن مفهوم الظواهر نفسها • ومن جهة أخرى لا نزاع فى أن السيكولوجيين يتجهون بأنظارهم أساسا الى الطب عندما يكونون بصدد علوم مساعدة للسيكولوجيا ، بينما الدلالة الاقتصادية هى المسألة الاساسية حقا من وجهة نظر الاتجاه الأساسى للسيكولوجيا وتنظيمها • ولذا فمن المهم عندما نكون حقا بصدد أسس السيكولوجيا أن نبين هنا أن « الفطنة السيكولوجية » الحقيقية لا يمكن اكتسابها الا بمعرفة الظواهر الانسانية كما هى ، بمعزل عن السيكولوجيا (١) ، وعندئذ فقط ستتمكن السيكولوجيا من طرح المشاكل بحيث تتوصل الى حلول فى متناولها بالفعل •

وتتعلق المسألة الثانية بالطريقة التى يترجم بها التحديد المادى للظواهر الانسانية من وجهة النظر السيكولوجية ، أو بعبارة أدق ، الطريقة التى ترتبط بها الحتمية السيكولوجية بالحتمية المادية للظواهر الانسانية • وتظل المسألة بسيطة طالما كانت السيكولوجيا محاكاة للفيزياء • فهناك مجموعة من العلاقات التى تحكم العمليات بصفة عامة • هل نريد مثلا سيكولوجيا مادية ؟ علينا اذن أن نجعل بعض العمليات تؤثر على عمليات أخرى : كأن تؤثر العمليات الفسيولوجية على العمليات السيكولوجية ، والحركات الجزيئية على الأفكار ، والغدد على العواطف • وستؤثر على الفكر كما تؤثر بصفة

(١) هذا تناقض فى الحد ومصادرة على المطلوب فكيف يمكننا ونحن بصدد أسس السيكولوجيا الحصول على « فطنة سيكولوجية » مع استبعاد « السيكولوجيا » ؟ (المراجع)

عامة عمليات على عمليات أخرى وفقا لقوانين الميكانيكا أو الكهرباء المغنطيسية . وهكذا تصبح السيكولوجيا مادية لأن الناحية الروحية قد تحددت باعتبارها عمليه عن طريق عمليات المادة ووفقا لقوانينها.

بيد أن مظهر المشكلة يتغير تماما بمجرد ابتعادنا عن سراب العمليات فعلى مستوى الظواهر « الدرامية » تختلف طريقة تأثير الحتمية تماما . اذ يجب أن تكون هذه الحتمية نفسها « درامية » ، كما أن طريقة تحديد ما هو اقتصادى لما هو سيكولوجي وطريقة ارتباط السيكولوجيا بالاقتصاد أوسع وأعمق من الحتمية الطبيعية للسيكولوجيا المادية القديمة .

ولقد تعدت السيكولوجيا فى الحقبة الأخيرة — والحق يقال — المفهوم البسيط للتحديد كما عرفته السيكولوجيا الكلاسيكية . **فقد قل اهتمام السيكولوجيين على الأقل فى المظهر ، بتحديد العمليات فى الحياة الداخلية أو تحديد عمليات الحياة الداخلية ، واستبدل بها العمليات التى يقوم بها الكائن العضوى وهى الاستجابات الكلية للفرد فى مواجهة موقف ما** . ونستطيع أن نقول أن مفهوم الحتمية أصبح بذلك أكثر انسانية . فبينما كان المثل العلمى الاعلى للحتمية فى السيكولوجيا فيما مضى هو الترابط المتسلسل للأفكار حينا والأفعال المنعكسة حينا آخر ، أصبحت المسألة الآن معرفة سلوك الفرد ككل فى المواقف التى تتطلب نشاطا . ولاشك اننا عند تناول التفاصيل سنجد رجعة الى المفهوم الميكانيكى البحت (وهو المثل الأعلى للسلوكية) أو الى المفهوم الروحانى كما فى Geisteswissenschaftliche مثلا بيد أنه يمكننا أن نفهم فورا ان هذه الاخطاء ناتجة عن الخلط فى الاهداف الحقيقية للسيكولوجيا ، ومن الجهل بما ينبغى أن يكون عليه اتجاهها.

---

(١) السيكولوجيا بوصفها علما « اخلاقيا » « science « morale انظر صفحة ٢٣ (المراجع)

الأساسى • اذ يجب أن ننظر بالفعل الى تصرف الفرد فى المواقف التى يتواجـــد فيها • وستظهر الحتمية السيكولوجية فى مجموع استجاباته لا فى حتمية تنتقل من عملية لأخرى • فالمسألة ليست هى المعرفة ـ نقطة نقطة وخطوة خطوة ـ بالطريقـة التى يمكن أن تؤثر بها اضاءة معينة فى زيادة انتاجية العمل بواسطة تشابك لا ندرى كنهه بين عدد من العوامل البيولوجية ـ السيكولوجية ـ الفسيولوجية بقدر ما هى معرفـة ما يحدث بالفعـل • فما يحتم وما يحتم يجب تعريفه بما هو متعلق بالانسان ، بما هو أفعـــال ومواقف الانسانية •

وبالرغم من أن الاتجاه نحو مفهـوم « درامى » أى انســانى للحتمية فى السيكولوجيا قد أصـــبح ملموسا عن ذى قبل فى الدراســات الســـيكولوجية الحديثة ، الا أنه من الجلى أن المفاهيم والبرامج ما زالت تفتقر الى الدقة • والواقع أن النظرة الى الانسان فى مجموعه وفحص استجاباته فى أوضاع محـددة ليس هو كل شىء • فيجب أن ننظر الى الفرد كما هو بالفعل ، والى المواقف كما هى بالفعل • وبعبارة أخرى نحن فى حاجة الى مفهوم عيانى حقا سواء بالنسبة للفرد أم بالنسبة للمواقف الانسانية • وهكذا نلاحظ على الفور أنه بالرغم من أن السيكولوجيا الكلاسيكية لا تتجاهل « دراسة المواقف » وتحاول فى أغلب الاحوال تفهم الفرد فى علاقته « ببيئته » الا أن مفهومها لهذه المواقف وتلك البيئة مفهوم مجرد وأحادى الجانب وتدفعها أصـولها واتجاهـاتها الى النظر فقط الى الموقف « الايديولوجى » و « التكنولوجى » للفرد وتنظر الى البيئة من وجهتى النظر الايديولوجية والتكنولوجية فحسب مهملة الوضع الاقتصادى الأساسى هذا اذا لم يقتصر الأمر على مجرد الاعتبـارات البيولوجية وهذه هى الطريقة التى تتم بها مثلا تحليلات المدرسة الاجتماعية لدور كايم • فقد أفاض دور كايم وتلامذته فى الكلام عن

اخضاع السيكولوجيا لعلم الاجتماع ، ولكن ما معنى هذا الاخضاع ! معناه ان تتحدد « التصورات الفردية » بواسطة « التصورات الجمعية » هذا بصرف النظر عن اخضاع السيكولوجيا لعلم اجتماع روحانى ، وما لم تكن هذه التصورات الجمعية تعبيرا عن خبرات الهذيان الجمعى فانها تكون على أحسن الأحوال مسألة ادخال «لأشكال اجتماعية » لا تتفق فكرتها قط مع التركيب الاقتصادى للمجتمع . وهكذا يقتصر الأمر من الناحية العملية على النظر الى « التصورات الجمعية » « والاشكال الاجتماعية » التى ينشأ فيها الفرد ويعيش ، فالمسألة هنا بكل وضوح هى الموقف الايديولوجى .

ومن جهة أخرى فان الوضع التكنولوجى للفرد يؤخذ فى الاعتبار : الاستجابات التى يجب أن يكتسبها والمواقف التكنيكية التى يجب أن يتوافق معها . ولا شك ان التخلى عن وجهة النظر البيولوجية الصرفة (التى لا تضع الفرد فى الا فى مواجهة الطبيعة) والاهتمام بالجانب الاجتماعى يعتبر تقدما نسبيا . وبالفعل لا يتعلم الطفل فقط التنفس والرؤية والأكل والسير بل يتعلم أيضا الكلام والمصافحة واستخدام الأدوات الشائعة ... الخ . غير أن كل هذه الأشياء أولية جدا وغير مؤكدة تماما .. انها أولية جدا لأننا نخترع الأمثلة لتوضيح النظريات بدلا من تحليل الأوضاع **الفعلية** ، وغير مؤكدة لأننا عندما لا نبدأ من هذا التحليل فاننا نسير بغير هدى تدفعنا قوة غامضة دون أن ندرى بالضبط أين نحن .

وعلى أى حال فان هذه النظرة الأحادية الجانب من كلا الناحيتين (الأيديولوجية والتكنولوجية) لا تصلح الا اذا افترضنا أن التنظيم الاقتصادى ينبغى أن يظل بمنأى عن أى مساس به بحيث لا يوجد مايدعو الى معرفته ، وأن « الباقى » يكفى : فهناك مصالح غريبة على العلم تدفع السيكولوجيا نحو التركيب العلوى

الأيديولوجى من ناحية ونحو التكنولوجيا من ناحيـــة أخرى ٠
ولما كانت المواقف التى يتواجد فيها الفرد طوال حياته ، والأحداث وامكانيات التصرف التى يصـــادفها ، والمنبهـات التى تدفعه الى الاستجابة تتوقف كلها على الظروف الاقتصادية (اذا تركنا الطبيعة الخالصة جانبا) ، فان كل تحليل « للبيئة » لابد وأن يبدأ بالذات بابراز هذا التحديد واذا استعملنا لغة « المنبه ـ الاستجابة » فان على السيكولوجى فى هذه الحالة أن يدرك الطريقة التى تنظم بهـــا الظروف الاقتصادية ، الأحداث التى يجب أن «يتفاعل الفرد معها» ٠ ولا تهمنا هنا تفاصيل آلية تحديد الانتقال « من الادراك الحسى الى الحركة » بقدر ماتهمنا بالذات ظاهرة توافق الفرد مع الظروف التى يحكمها قانون غير سيكولوجى بالمرة ٠ وعلينا أن نتتبع تفاصيل هذا التوافق لا أن نحلم ببداية حركة هذه الآلية أو تلك ٠

وتتضح أولوية الجانب الاقتصادى فورا بالنسبة لعلم النفس وذلك بناء على استحالة الحصول على سيكولوجية الفرد الا عن طريق مجموعة من المتقاطعات recoupements (البينات النابعة من مصادر مختلفة) ٠ فلا يمكننا معرفة الإستجابة كما هى الا بقدر حدوثها ٠ فالاستجابات التى تحدث تتناسب مع المواقف التى تتم فيها ٠ وقد حاول البعض أن يثبت كيف أن مايسمى « عقدة النقص » عند الطفل البروليتارى تنمو بشدة ملحوظة نظرا للأوضاع الاقتصادية فى الأسرة البروليتارية ، كما حاولوا اثبات كيف أن عقدة النقص عند المرأة تنشأ من ظروفها الاقتصادية ومن الوضع الاجتماعى القانونى الناتج عن هذه الظروف ٠ وهكذا تصبح عقدة النقص عرضا ناتجا عن تنظيم اجتماعى معين وانه لا جدوى من اعتبـــاره ظاهرة « أبدية » ـ هذا بالطبع اذا تركنا جانبا الأحـــلام الرومانتيكية حول نقص الأجهزة العضوية ـ ولاشك أن عقد النقص تتضمن دروسا تتعدى شـكلها الذاتى ، غير أن هذه الدروس لا يمكن اســـتخلاصها الا اذا أغفلنا

مايتحدد بالمواقف التى تنتج عنها العقدة ، وعندئذ تصبح المتقاطعات ضرورية • وبعبارة أخرى فان معرفة الانســـان التى تعتبرها السيكولوجية الكلاسيكية نقطة البداية فى علم النفس لا يمكن أن تتواجد بالفعل الا فى النهاية تماما شأنها شأن علم النفس الوظيفى العام الذى لا يمكن استخلاصه الا من مجموع أبحاث السيكوتكنيك بالذات ، لا كما تخاله السيكولوجيا من أن علم النفس الوظيفى العام علم نظرى وأن السيكوتكنيك مجرد تطبيق له •

وقد تثار هنا قضية • فقد رأينا بوضوح كيف أن عقدة النقص مثلا تتحدد فى نهاية الأمر بالظروف الاقتصادية (ولسنا هنا بصدد حقيقتها أو مداها الفعلى) • كما رأينا بشكل أوضح كيف تصوغ المادية القديمة مفهوما ماديا للحلم مثلا • كما رأينا (مبدئيا على الأقل) كيف أن نشاط أو خمول المخ يولد الحلم ومحتواه • غير أننا لم نر ـ بالعكس ـ كيف يمكن لنظرية الحلم أن تكون مادية اذا تخلينا فى نفس الوقت عن المادية الفسيولوجية أو البيولوجية ، أى اذا لم نعترف بأن محتوى الحلم تحدده العمليات المخية •

ويجب أن نقرر على الفور أننا لا نرفض بشكل متعسف كل المحددات الفسيولوجية والبيولوجية التى توجد فى الحياة النفسية ، ولا داعى للقـــول بأننا لا نفكر اطلاقا فى نفى الأهمية القصوى للظروف الفسيولوجية والبيولوجية للفرد بالنسبة لعلم النفس • غير أننا يجب أن ندرك مدى هذا التحديد كما هو بالفعل • ولن يتحقق ذلك الا بتتبع التحليل الدرامى خطوة خطوة حتى يصل بنا الى الفسيولوجيا والبيولوجيا • ونحن لم ندن المادية الطبية الا بسبب غموضها ولأنها موقف قاطع ومانع • ومن ناحية أخرى فان هذه قضية مجردة • فنحن لا نريد أن نقول أن دور السيكولوجيا عبـــارة عن البحث عن التحـــديد الاقتصـــادى خلف الظواهر السيكولوجيـة • فنحن نقـــول فقط أن التحليل الكامل للظواهر

السيكولوجية الفعالة يكشف عن هذا التحديد • فعلينا أن نحلل اذن الظواهر السيكولوجية كما توجد وبأساليب تسمح بملاحظتها وفحصها ، ويتعين علينا أيضا أن نواصل التحليل حتى النهاية فلا نغمض عيوننا أو نحيد عن الطريق قبل أن نصل الى أقصى حد ممكن• يجب اذن ألا نضع المادية القـــديمة والجـــديدة في نفس المستوى بالنسبة للسيكولوجيا • فقد اعتادت المادية القديمة أن تخترع لكل نظام أو مجموعة من الظواهر اطارا ماديا • ومنهـــا مثـــلا النظرية الشهيرة حول اليقظة الجزئية بوصفها علة الحلم ، ومثل هذا الأسلوب يلائم منهجا يستنفد أغراضه فورا ، فانه ، ما أن يشرح غرضه حتى يصبح عديم الجدوى • ولكننا نقوم هنا بشيء مختلف تماما • فلسنا بصدد « نظرية مادية للحلم » وانما بصدد دراسة الحلم فى نطاق السيكولوجيا ذات الطابع المادى • فنحن نحلل الحلم ونتتبع حتى النهاية كل العوامل التى تتدخل فى نشأته وتطوره • ثم ان ما يهم هو محتوى الحلم والصراعات التى توجده وتحدده ، وهكذا نجد أنفسنا فورا فى نطاق « الحدود العادية للأحوال الانسانية » • ونحن لا نحاول بأى حال من الأحوال أن نلعب بالمادية ، فلا نقحمها حيث يجب أن ينبع الفهم الواضح من الدراسة السيكولوجية فقط ، فعلينا أن نقوم بهذه الدراسة ونترك الكلمة بعد ذلك للمادية حيث يجب أن تتكلم بالفعل • وهذا هو كل الفرق بين المادية القديمة والجديدة• فالأولى تجعل كل شيء ماديا بلا تعقل أو تمييز ، وهى على استعداد لترك الكلمة للمادية فى أى مكان ، ثم تصمت حيثما يجب أن تتكلم فعلا • أما المادية الجديدة فتدرس الظواهر بطريقة موضوعية حقا ، وبدلا من أن تختلق اختلاقا تحديدا ماديا فانها تنتهى الى التحديد المادى القائم فعلا •

توصلنا فى كتاباتنا السابقة الى أن نستبدل بالمقابلة الغامضة « للسيكولوجيا الكلاسيكية » بالسيكولوجيا « الجديدة » مقابلة أدق وهى مقابلة للسيكولوجيا العيانية بالسيكولوجيا « المجردة » ومن هذه المقابلة الأخيرة التى وضحنا ضرورتها يتعين علينا أن نتوصل الى الشكل الأساسى حقا لهذه المقابلة التى تعتبر أساس « أزمة » السيكولوجيا : وهى مقابلة السيكولوجيا **المثالية** بالسيكولوجيا **المادية** ٠

فمقابلة السيكولوجيا « الكلاسيكية » بالسيكولوجيا «الجديدة» تتعلق فقط بالمحاولات الصادقة أو غير الصادقة (وأغلبها غير صادق) للتخلص من التقاليد التى سارت عليها السيكولوجيا منذ نشأتها حتى القرن العشرين ٠ وتتعلق مقابلة السيكولوجيا « المجردة » بالسيكولوجيا « العيانية » بنقد هذه التقاليد على غرار مافعلنا ٠ وبالرغم من ضرورة هذه المقابلة وفائدتها تكنيكيا الا أن من عيوبها أنها تعزل السيكولوجيا بكل عيوبها وضرورات اعادة بنائها ، عن الوضع الحقيقى ، الذى تعبر عنه هذه العيوب والضرورات لذا فيلزمنا أن نضع فى أساسSou tendreهذه المقابلة مقابلة أخرى أقل شكلية ، وبدلا من أن نقتصر على النظر فى الجانب التكنيكى من « أزمة » السيكولوجيا ، علينا أن نعتبر هذه الأزمة حالة خاصة من حالات النزاع بين المادية والمثالية ٠ وبهذه الطريقة فقط يستطيع نقد أسس السيكولوجيا أن يتحرك فى مجال حقيقى تماما ٠ فكل المحاولات فى السيكولوجيا تنتسب اما للمثالية أو للمادية شأنها فى ذلك شأن المحاولات فى الفلسفة ٠ غير أن النقد السيكولوجى المعاصر بدلا من أن يعترف بهذا الواقع فانه يلجأ الى حيل التمويه فى المعانى لكى يخفى التعارض الحقيقى ٠ غير أنه يتعين علينا ابراز هذا

التعارض ، لأننا نستطيع ابتداء من هذا التعارض أن نتناول فيما بعد التعارضات ذات الطابع التكنيكي البحت ·

حاولنا في السطور السابقة ابراز ضرورة المادية بالنسبة للسيكولوجيا مما دفعنا في كثير من الأحوال الى التطرق الى السيكولوجيا المثالية · ونريد أن نقول الآن بضع كلمات حول مانعنيه بالمثالية في مجال السيكولوجيا ·

لا جدال في أن الروحانية ، أو واقعية الحياة الداخلية ، كما اعتدنا أن نقول ، أكبر دليل على المثالية في السيكولوجيا · ومع ذلك فان مفهومي الروحانية والمثالية ليسا على نفس المستوى · فالروحانية تكشف عن المثالية التي ولدتها ، وعليه فيجب أن نصعد من الروحانية الى مسار المثالية لكي نتمكن فيما بعد من التعرف على المثالية حيثما وجدت ·

وتتمثل الروحانية في نهاية الأمر في بناء عالم وهمي على نمط الطبيعة الفيزيقية ، أي طبيعة ثانية · ولاشك أن هذه مناورة بارعة اذ سيحدث خلط دائم بين « الطبيعتين » · فسيكون هناك بالتأكيد معنى لما يقال ولكنه لا يتعلق بالموضوع المقصود · فواقعية احدى « الطبيعتين » ستخفى لا واقعية الأخرى وستتجه الأنظار الى الأولى ونحن نتكلم عن الثانية ·

وهكذا يحلون واقعا وهميا محل الواقع الذى لا يريدون أو لا يستطيعون دراسته ، وبذلك يستبعدون من مجال الأشياء الموجودة جزءا هاما من صيرورتها : وتلك هي السمة المثالية للروحانية · فبدلا من دراسة الظواهر الواقعية للانسان يخترع عالم جديد لا واقع له · ولكي لا يقومون بما هو مطلوب منهم يدعون أنهم يقومون بما هو أفضل · وتحت ستار القيام بدراسة « حقيقية » للواقع نجدهم يدلسونها بوسائل بارعة بحيث لا نجد أنفسنا عندما نشرع في الدراسة الا أمام وهم · وليس التحول الذى سبق أن

تكلمنا عنه سوى هذه المدالسة منظمة ومقامة فى شكل أسلوب دقيق لا شعورى • ويتحول محتوى السيكولوجيا كله بعد ذلك الى مجموعة من المبادىء المعلنة ، تصبح أكثر ادعاء ومبالغة وجسارة وايهاما بالآمال العراض لأنها ليست فى الحقيقة سوى مبادىء خالية من أى محتوى واقعى حقيقى • ولا تظهر كل مبالغة أو أمل الا فى المكان المحدد الذى حل فيه الوهم محل الحقيقة •

وهكذا يحكى الروحانى قصصا هـائلة حول « ماهو نسيج وحده » sui generis • ولو لم تدلس السـيكولوجيا على الواقع الانسانى لما أصبح « ماهو نسيج وحده » الموضوع المفضل لديها • ولو اكتفت السيكولوجيا بالحقيقة كما تبدو فى التجربة الانسانية لما كانت فى حاجة الى اختراع كل هذه الأسـاطير الخاصة بطبيعة الروحانيات : ولكن لما كان الذين يعيشون فى الخيال مجبرين على الظهور بمظهر المنهمكين فى عملهم ، كذلك كانت السيكولوجيا فى حاجة الى تصريحات غير عادية حول الطبيعة الرائعة للواقع ، ذلك الواقع الذى لا وجود له ، لأنها تقصد أن تدرس الواقع مهما كان • لذلك كان لابد من تأكيد روعة واقع غير موجود لكى ينسوا ويجعلون الآخرين ينسوا واقعا قائما •

وعندما يخترعون الحياة الداخلية فانهم يفتحون ثغرة كبيرة فى صيرورة الأحوال الانسانية تؤدى ببساطة الى الفراغ والعدم • وهكذا يأتى العمل الانسانى من العدم ويعود الى العدم : فهو يصدر من الحياة الداخلية التى (بسبب عدم وجودها) لا يحدث فيها أى شىء ، ثم يعود اليها • وبادخال الحياة الداخلية فى مفهوم الأحوال الانسانية تنشأ امكانية الوصول بها الى حيث لا يوجد مكان للواقع • وتفسر الأحوال الانسانية بقصص الجان بعد استبعاد الجان منها • وتسمح « الحياة الداخلية » بالقفز فى اللحظة التى يجب أن يحدث فيها شىء ، الى مسرح لا يمكن أن يحدث عليه أى شىء • **ولذا فان**

أى سيكولوجيا تعترف بطريقة أو بأخرى بالحيـــاة الداخلية هى بالضرورة سيكولوجيا مثـــالية • ولهذا السبب أيضـــا فان أى سيكولوجيا مثالية تعترف دائما بطريقة أو بأخرى بالحياة الداخلية •

غير أن هناك أشكالا أكثر دهاء من السيكولوجيا المثالية الى جانب تلك الأشكال الفجة التى فيها تحتل الطبيعة « نسيج وحدها » محل الواقع الانسانى ، أى واقعية الحيــاة الداخلية الفجة كمـــا نصادفها فى السيكولوجيات الروحانية الواضحة والصريحة • غير أن الفارق يتمثل ببساطة فى عدم ابراز واقعية الحياة الداخلية مع الابقاء على العدم مصدرا ومصيرا للفعل الانسانى : وهكذا يستبدلون بفكرة الجوهر مقولات « الشــكل » و « البنـــاء » و « الشخص » ويضعون هذه المقولات قبل وفوق الظواهر الروحانية ، غير أن كل ما هو أساسى فى فرض الحياة الداخلية يظل قائما ، وهو أن يكون هناك ميدان سباق لا تجرى فيه سوى الأشباح • فسواء وضعوا فى مقدمة تلك السيكولوجيا فكرة الشكل أو البناء أو الدلالة أو الشخص فاننا نظل فى عالم الأشباح • سيظل هناك دائما شىء آخر غير مجموع الظواهر الانسانية الحقيقية ـ هناك دائما « لا شىء » يوضع فى أساس « شىء ما » ـ وتتحرك هذه الأشباح الشفافة فى مجال كله شفافية بلا رؤية : معجزة الأشياء الوهمية التى تستطيع تحقيق نتائج حقيقية •

بعبارة أخرى فان السمة الأساسية للمثالية ، فى السيكولوجيا وفى غيرها ، تتمثل فى تحويل الأشياء الواقعية الى عدم ، أيا كانت طبيعة هذا التحويل وطريقة وصف هذا العدم فيما بعد • وبالفعل نجد فى مجموع الاتجاهات السيكولوجية سلسلة متدرجة متصلة من درجات الروحانية ، ابتداء من أكثر الروحانيات فجاجة حتى أكثر المفهومات هباء للعدم • غير أننا نجد أنفسنا دائما فى لحظة تصبح فيها الصيرورة مجرد سحر ، فيتلاشى الانسان الذى يعيش

ويعمل وتتلاشى معه الأشياء التى يعملها والأحداث التى يرتبط بها بحيث يترك مكانه لهذا « اللاشىء » الذى يجب أن يولد منه مرة أخرى بكل مايعمل وما يحيى ٠

وقد احتجت الاتجاهات السيكولوجية ذات المنبع المادى دائما على هذا التحول وضد هذا التلاشى فى العدم ٠ فلم تعترف قط بأن شيئا ما يوجد ويعمل كما توجد وتعمل بقية الأشياء العادية يمكن أن يصبح فجأة لا شىء لمجرد استمراره فى وجوده اوعمله ٠ وهذا مايحدث بالنسبة للاحساس ٠ فالمنبه يؤدى الى التنبيه الذى يعقبه الاحساس ، وتستمر العملية ولكن الاحساس يصبح ــ باسم كل مايوجد ويعمل ــ لا شىء ٠ لقد بدا للفلاسفة والسيكولوجيين ذوى الاتجاه المادى دائما ، أن التحول الفجائى للحركة الى فكرة والفكرة الى حركة وتحويل التقلصات الحشوية الى انفعالات والانفعالات الى ايماءات نوع من تحويل الشىء الى عدم وتحويل العدم واللاشىء الى شىء ٠ ولذا حاولوا دائما الاحتفاظ « بالشىء » ٠ وهذا هو السبب فى أنهم بحثوا ومازالوا يبحثون عن « الشىء » الحقيقى الموجود منذ البداية ، أى المادة الكامنة وراء العاطفة والفكرة والارادة ٠ غير أن هذا الشكل الأول للمادية لا يعبر الا عن العزم على عدم الاعتراف « بالتحـــويل » وهى الامكانيـــة الوحيـــدة أمامه طالما اســـتمرت السيكولوجيا فى اثارة القضية الأســاسية بالطريقة الكلاسيكية : جسم « عار » فى مواجهة طبيعة « عارية » ٠

ان الاسلوب الذى سبق انأشرنا اليه لتغيير القضية الاساسية فى السيكولوجيا يجعل « الواقع الانسانى » لا « المادة » هو «واقع» انسيكولوجيا ٠ وقد يعوز هذا التعبير الوضوح الأكاديمى ، الا انه لا جدوى هنا من تعقيد الأمور ٠ فالزواج والجريمة والعمل وقائع انسانية وتمثل هذه الوقائع وغيرها من مجموعة الظواهر الداخلة فى نفس النطاق « واقع » «السيكولوجيا» الذى سميناه «الدراما» ٠

وسنظل فى مجال الأشياء الطبيعية والواقعية طالما بقيت السيكولوجيا في هذا المستوى وطالما تعلق التأكيد والوصف أو النظرية بالتطورات انفعلية للانسان أو للبشر • اما السيكولوجيون المثاليون فانهم يهجرون هذا الواقع لكي يصلوا الى العدم •

والمثالية وحدها هي التى تتمسك « بالحكم السيكولوجي المسبق» préjugé اى بالرأى القائل بان فى وسع السيكولوجيا تقديم نفسير نهائى لأى شيء • كما أن « الحكم السيكولوجى المتحامل » هو من الناحية الأخرى دليل دائم على المثالية • وهكذا فان كافة المدارس التربوية المؤسسة على السيكولوجيا وحدها والتى لا تتوقع التغيير الا بمعجزة تحدث فى «الداخل» هى مدارس مثالية لأنها فى نهاية الأمر تعتبر العدم منبعا لحـــدث حقيقى أو مجموعة من الاحداث الحقيقية • وينطبق هذا ايضا على « المعرفة بالانسان » بصفة عامة • ان القول بأن هذه المعرفة ممكنة فقـــط بالطرق التى اصطلح على تسـميتها « سـيكولوجيا » أو القـول بان الكلمة الأخيرة تبقى للسيكولوجيا ، هو محاولة لتفسير الجبن « الجرويير » * بالثقوب التى تتخلله ، أى تفسير الشيء بالعدم •

والحق ان السيكولوجيا لا تعرفنا ولا تستطيع أبدا أن تعرفنا بأى بداية • فهى ليست فى « البداية » ولكنها فى « الوسط » • فلا يوجد فى الانســان أى شيء أو حدث أو ظاهـــــرة تســـتطيع السيكولوجيا أن تدرسها دراســـة كاملة أو ينبغى أن تقول الكلمة الأخيرة فيهـــا • فكل ما يحدث لانســـــان يتقرر بدقة من خـــلال مجموع الاحـــداث التى يعيشهـــا ، غير ان هذه المجموعـــة من الاحداث مترتبة هى ايضا على البناء الاقتصـــادى وهنا نســـتطيع بالتأكيد ان نتكلم عن تحديدتفصيلى نقطة نقطة • اما محاولة اعتبار

* gruyére نوع من الجبن الفرنسي تتخلل اقراصه ثقوب واسعة (المترجم)

التفسير « السيكولوجي » تفسيرا نهائيا ولو في معرفة الانســـان فيكشف فورا عن الموقف المثالي بالنسبه لمجموع الاشياء الانسانية ·

وعندما نقر بان السمة الاساسية للسيكولوجيا المثالية هي التحول الى العدم فاننا نقف على ارض واقعية الحياة الداخلية · والمسألة تبدو بسيطة الى حد السذاجة ، فلما كانت الحياة الداخلية لا شيئا فكل محاولة للالتجاء اليها ليست في الحقيقة سوى رغبة في دلس الواقع ، فاذا ما استبعدنا الواقعية نفسها كمرجع ماذا يتبقى ؟ لا يبقى الا الافكار « الصرفة » أي « الدلالات » · وهذا هو الشيء الوحيد الفعال الذي يتبقى للسيكولوجيا العادية في حالة تخلينا عن كل حقيقة فيما هي بالذات noumene أو فيما هي ظاهرية (١) لنا هو « روحي » لأن « العواطف » نفسها ليست هنا سوى دلالات « عمياء » اى انها تكون مســـوقة في افتعـــال بدون دلالاتها · فالسيكولوجيا الكلاسيكية تقول ان شخصا ما يتصرف بطريقة ما لانه يفكر في أمر معين فاذا جردنا التفكير من كل واقعية تتبقى لنا « دلالة » صرفة وبسيطة وهي ما يفكر فيه الشخص · ومع ذلك فان فعله حقيقة · فهو لم يكتف فقط بالقيام « بحركات » ولكنه أثار حدثا انسانيا ترتبت عليه أحداث واقعية كأن يرتكب جريمة مثلا · وهكذا لا يمكن تفسير العمل الحقيقي أو الحدث الانساني — الذى تتخطى واقعيته الفرد نفسه — في السيكولوجيا العادية الا « بدلالته » : فالسمة الاساسية للسيكولوجيا المثالية هي في نهاية الامر تفسير الاشياء الحقيقية بالدلالات ·

نستنتج مما سبق ان السيكولوجيا كما هي في العادة مثالية في الاساس · واذ تجاوزنا عن الواقعية ، أى عن دراســـة الحياة الداخلية التي لا تستطيع السيكولوجيا العادية أن تقوم بها (. لأن

---

(١) المقصود هنا الـ noumene (الشيء بالذات) والـ phénomène (الشيء الظاهري) عند كانط (المراجع)

الحياة الداخلية ليست حقيقة) وأخذنا فى الاعتبار ما تقوم به فعلا لوجدنا ان السيكولوجيا هي النظام الذى يتناول الظواهر التى « يجب » تفسيرها بدلالات فحسب والذى يؤكد أيضا انه توجد فعلا ظواهر تفسر بهذه الدلالات . والظاهرة السيكولوجية هي ظاهرة تبدو مترتبة على دلالة ، والتفسير السيكولوجي هو التفسير الذى يشرح الاشياء بالدلالات .

وهذا هو بالدقة الشيء المستحيل . ولا تظهر هذه الاستحالة بالطبع طالما كانت السيكولوجيا تختار ظواهرها من بين الاشياء الواقعية . ولهذا تختار السيكولوجيا أشياء غير واقعية بالذات كنقطة بداية حتى لا تتضح هذه الاستحالة . غير أنها تضطر الى الاعتراف بهذه الاستحالة بمجرد موافقتها على اتخاذ الاشياء الواقعية نقطة بداية . فالاشياء الواقعية لا تفسرها بالفعل الا أشياء واقعية ولذا لابد من تغيير كل شيء ، لابد من تغيير مفهوم الظاهرة السيكولوجية لكى لا تهتم السيكولوجيا الا بالوقائع ، ولابد من تغيير فكرتنا عن التفسير السيكولوجى حتى يفسر الاشياء بأشياء أخرى . وهكذا يتلاشى كل مفهوم قديم لعلم النفس من حيث هو مفهوم مثالى فى الأساس . واذا كنا نحتفظ بنفس الاسم القديم للابحاث الجديدة تماما فذلك بقصد تيسير الامور .

- ٧ -

يوجد اذن مفهومان للسيكولوجيا يواجه كل منهما الآخر : يؤمن المفهوم الاول بانه توجد حقائق تفسر فى نهاية الامر بدلالات وتلك هى السيكولوجيا المثالية . أما المفهوم الثانى فلا يريد أن يفسر الحقائق الا بحقائق أخرى وتلك هى السيكولوجيا المادية . وينطلق المفهوم الاول من « الحكم السيكولوجى المنحاز سبقا » ،

أما المفهوم الثانى فلا يعترف بهذا الحكم المنحاز سبقا بل يستخلص الظواهر السيكولوجية من خلال مجموع الظواهر الانسانية العادية دون أن يدلسها ليحل محلها صورة محولة تحاكى الطبيعة الفيزيقية، وهو بعد ذلك يفسر الظواهر بظواهر أخرى من نفس النوع • ويعتبر المفهوم الاول أن المبدأ الاخير فى التفسير هو العدم أو الدلالات فى أحسن الاحوال • أما التفسير الاخير بالنسبة للسيكولوجيا المادية فهو ذلك الذى يحدد الظواهر الانسانية ، تلك الظواهر التى لا تدرس السيكولوجيا سوى احدى جوانبها •

قد يبدو أن كل ما سبق يعوزه الكثير من الدقة • وهذا صحيح بالفعل ، ولكن هذه الاشياء لا تتم كلها مرة واحدة ، وكل ما يعنينا هنا هو تحديد الاتجاه الحقيقى الذى سيسير فيه نشاطنا من الآن فصاعدا • وقد يعتقد البعض اننا لم نبغ سوى اثراء ترسانة لطائف المعانى Nuances ، ولكننا أردنا أن نثبت ان كل لطائف الحركة السيكولوجية الحالية كاذبة وعقيمة وان الاتجاه الوحيد الذى سيتيح للسيكولوجيا امكان تقديم شىء مجد حقا هو الاتجاه المادى الحديث• وأردنا أن نثبت أيضا ان السيكولوجيا المادية لا تواجه سوى عدو واحد بالرغم من التشابك المعقد للمحاولات والاتجاهات المختلفة ، هذا العدو هو السيكولوجيا المثالية • ولا يوجد تعارض الا فى هذه المسألة أما السيكولوجيون الذين يدعــون لآراء تبدو متباينة تماما فى المظهر فهم فى الواقع متفقون تماما •

ونحن نعلم انهم سيواجهوننا مرة أخرى وبقوة ، بالحجة التى واجهونا بها من قبل • فلتقيموا اذن هذه السيكولوجيا العيانية أو المادية التى تتكلمون عنها • وقد سبق ان قلنا مرارا ان العيب لا يأتى من جانب الابحاث التى يسير بعضها فى الطريق الصحيح

ولكن من جانب النظرية التى لا تتفق ابدا فى أى موضع منها تقريبا مع ما يجب أن يكون • نحن اذن فى وضع يستدعى فى الوقت الحالى مزيدا من النقد • فنحن لا نخشى أن تطمس فكرة هذا النقد ولكن نخشى أن يعتريها الغمـوض اذا تركناها من أجـل أبحاث تفصيلية قبل أن تصبح واضحة تماما ، على حين أن هذه الابحاث ستتم بعدئذ وستتحقق فى اطار مفهوم السيكولوجيا التى تكلمنا عنها •

ملحق

علم النفس العام والسيكوتكنيك

لاشك انه لم يفوتكم ان السيكولوجيا لم تتمكن بعد خمسين عاما من المحاولات من تكوين فكرة واضحة عن اسسها . فهى لم تجدد الظاهرة السيكولوجية والمنهج السيكولوجى بطريقة يقبلها كل علماء النفس . ويرجع السبب فى هذا الوضع الى عاملين : فمن جهة لا يمكن معالجة لب تعاليم السيكولوجيا التقليدية وخاصة مذهب واقعية الحياة الداخلية وفقا لمفهوم العلوم الوضعية لانها تنبع من أصل غريب على التجربة . ومن جهة أخرى لا زالت هذه التعاليم تعيش بعناد غريب فى أغلب المحاولات وتعرقل الجهود الطيبة المبذولة .

لذا يتجه الاهتمام الأول للمحاولات الجديدة المعاصرة نحو تصفية السيكولوجيا الكلاسيكية ، اما بالتخلى تماما عن الافكار التقليدية واما بابراز خطأ أو عقم اساليبها الاساسية .

وقد أثبتت خبرة البرامج المختلفة التى وضعت فى الحقبة الأخيرة والتى لم يفلح اى منها ان يكون مرضيا تماما أن حل مشكلة اسس السيكولوجيا لن يتحقق عن طريق تأملات نظرية محض ، وان

غريب تماما عن تعاليم الحياة الداخلية والاهتمامات المجردة لعلـــم النفس العام الحالى ؟

٢ ــ ماهى مبـادىء ومفاهيـم علم النفـس العـام فى المنظور المشـار اليـه ؟

ويمكن اختصار هذين السوءالين الى سوءال واحـد هـو :

كيف يمكننـا أن نتصـور اليـوم علـم نفـس عـام مستخلص حقـا وبدقـة من التجربـة ؟

" أنتهـى "

سلسلة الدراسات النفسية

تحت أشراف د . لطفى فطيم

ستنشر هذه السلسلة الكتب المؤلفة والمترجمة ذات الاتجاه التقدمي والتي تتناول مختلف قضايا علم النفس . وتنفتح على كافة مدارس علم النفس وتشجع الافكار النظرية والاقتصادية والتي تتناول نفسية وشخصية المواطن العربي .

وتحت الطبع فى هذه السلسلة:

١ ـ شرلوك هولمز يقابل سيجموند فرويد (رواية) .
تأليف : نيكولاس ماير وترجمة : د . لطفى فطيم .

٢ ـ الاغتراب . تأليف : د . نبيل أسكندر .

٣ ـ اليسار الفرويدى ترجمة : د . لطفى فطيم وشوقى جلال .

٤ ـ الارشاد النفسى بين النظرية والتطبيق تأليف : د . لطفى فطيم .

٥ ـ الماركسية ونظرية الشخصية تأليف : د . فرج أحمد فرج .

٦ ـ نظريات التعلم وتطبيقاتها التربوية .
تأليف : د . لطفى فطيم ، د . أبو العزايم مصطفى .

٧ ـ علم النفس والموسيقى . تأليف د . لطفى فطيم .

٨ ـ علم النفس الطفل المعوق : تأليف : سى . ى . رونيشتين .
ترجمة : د . بدر الدين عامور .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة : بقلم د . لطفى فطيم	. . . .
تصدير : بقلم الأستاذ الدكتور مصطفى زيور	٣
الباب الأول : علم النفس الأسطورى وعلم النفس العلمى	١٧
الباب الثانى : الى أين تتجه السيكولوجيا العيانية	٧٩
ملحق : علم النفس العام والسيكوتكنيك .	١٢٧

جورج بوليتزير فيلسوف ماركسى فرنسى لمع أسمه فى صفوف الحزب الشيوعى الفرنسى فى العشرينات وأشتهر بكتابه عن المادية الجدلية والذى أحتوى المحاضرات التى كان يلقيها فى الجامعة العمالية لتعريف الطبقة العاملة الفرنسية بتلك الفلسفة وأهتم دائما بقضايا علم النفس ،وكتب فيها موضوعات مختلفة وكانت له وجهة نظر متميزة .

وقد عمل فى صفوف المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال الالمانى أثناء الحرب العالمية الثانية وقبض عليه الالمان وأعدموه .

المترجم

الدكتور لطفى محمد فطيم من الاسماء المعروفه فى مجال علم النفس فى مصر ـ حصل على الدكتوراه من جامعة عين شمس ،وعلى دبلوم العلاج النفسى من أنجلترا . أشتغل بالتدريس الجامعى فى مصر والبلاد العربية ـ نقل الى العربية عدة مؤلفات هامه فى علم النفس مثل : علم النفس فى مائة عام ،ونظريات الشخصية اليسار الفرويدى وتخصصه الدقيق هو الارشاد النفسى وله فيه مؤلف هو. الارشاد النفسى والتوجه التربوى . وقد أنتخب عضوا بشعبة الارشاد النفسى بالجمعية النفسية البريطانية عام ١٩٨٥ .



دار شهدي للنشر

١٦ شارع أسماعيل محمد ـ الزمالك ـ القاهرة